# البيان
# في علوم القرآن

## مع مدخل
## في أصول التفسير و مصادره

إعداد


د. سليمان بن صالح القرعاوي
أستاذ التفسير و علوم القرآن
قسم الدراسات الإسلامية - كلية الأداب
جامعة الملك فيصل
الاحساء - المملكة العربية السعودية

أ.د. محمد علي الحسن
الأستاذ
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
دبي - الإمارات العربية المتحدة



الطبعة الرابعة
( مزيدة و منقحة )
١٤٣١ هـ


مكتبة الحديثي

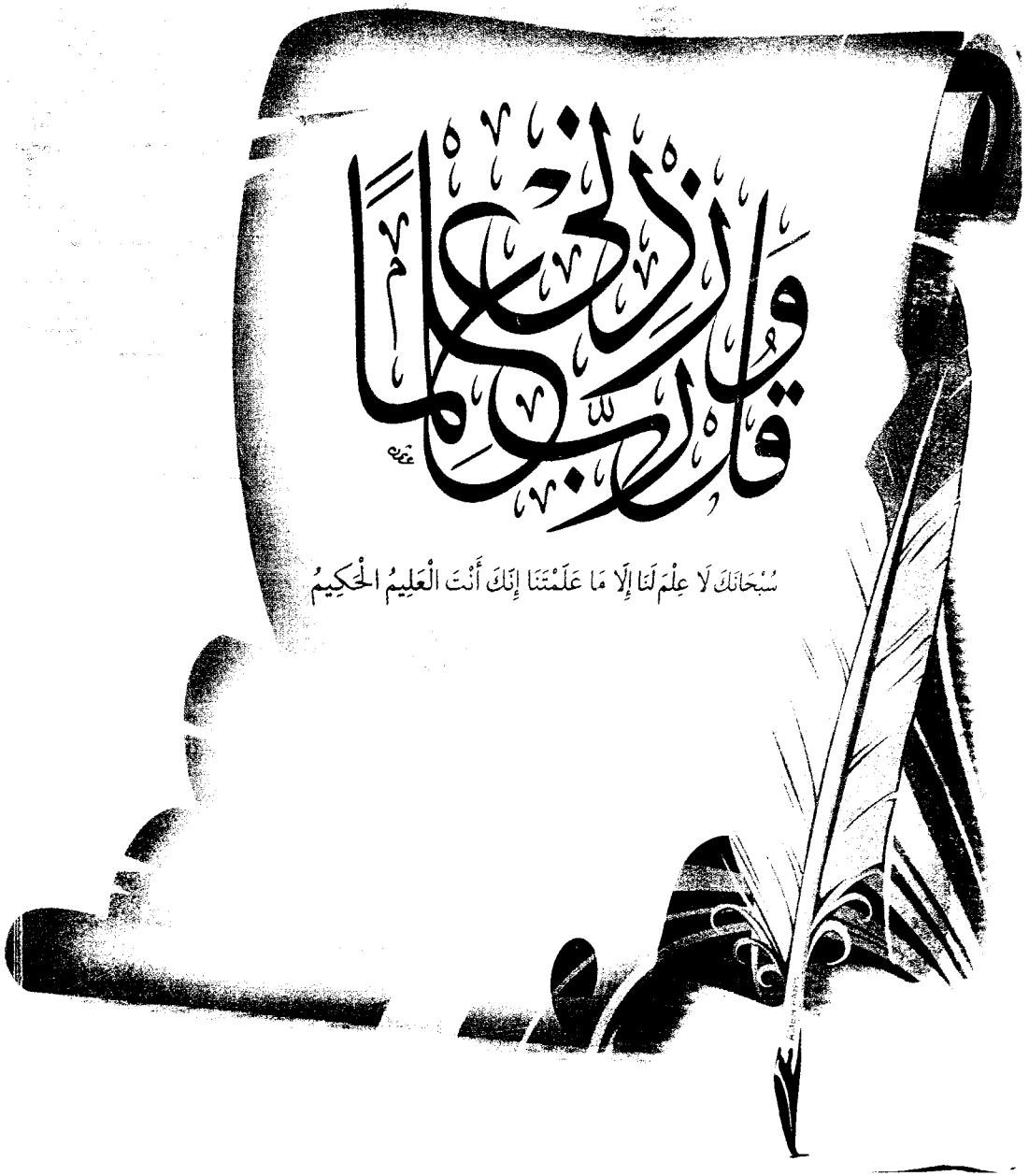

الرياض، وثمرات يانعة من أشجارها، اجتهد فيه المؤلفان أن يتخذا أحوج ما يحتاج إليه الطالب في دراسته، ليحيط بما لا غنى له عنه لمعرفة دستور خاتمة الرسالات ومنهجها، فيحسن فهمه والانتفاع به، ويوفق إلى صدق تطبيقه، والعمل بأحكامه وآدابه.

وقد ضم الكتاب باقات متنوعة من تلك الغياض الوارفة، كل باقة تمثل فصلاً، وكل وردة منها ينتظم رصف وُريقاتها بحثاً، فكان اختياراً شاملاً، لم يدعا للمطّلع عليه منبتاً دون جذور، فقد أخذا بيده إلى أصوله ومراجعه ليكون البيان سبيله إلى التراث العظيم، يقف على مكنوناته ويغوص على درره، ويتخيّر من كنوزه، فجمع هذا الكتاب بين أصالة البحث وحداثته، بأمانة العزو، وحسن العرض والمناقشة والترجيح، بعبارة جزلة وأسلوب سهل، وتلخيص محكم، وتفصيل مرتب، يساعد القارئ على حسن الفهم والاستيعاب.

جزى الله المؤلفين خير الجزاء.

الأستاذ الدكتور محمد عجاج الخطيب

رئيس قسم الدراسات الاسلامية

بجامعة الامارات العربية المتحدة



# تمهيـــــــد

نقصد بعلوم القرآن -كفن مدون- المباحث التي تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وإعجازه، وجمعه وترتيبه وناسخه ومنسوخه، وقراءاته ونحو ذلك من المواضيع التي كانت معروفة للصحابة وإن لم تكن مدونة مكتوبة إنما مسلكهم في تحصيلها الفهم السديد أو تذوق بيان القرآن وإعجازه، كل هذا كان سليقة وذكاء في القريحة وبتوجيه وبإرشاد من رسولهم الكريم عليه السلام.

ثم جاء التابعون وبقيت العلوم تؤخذ بالرواية والتلقين لا بالكتابة والتدوين، حتى كانت بداية التدوين لجزء من علوم القرآن، فقام أمثال سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ودونوا لنا الروايات التفسيرية المروية عن الصحابة وكبار التابعين، وبذلك كان أول حركة لتدوين علوم التفسير، ثم جاء الفراء المتوفي سنة ٢٠٧هـ فدون كتابه معاني القرآن، ويحى بن سلام ومحمد بن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠هـ وقد دون في مقدمة تفسيره أبحاثاً في علوم القرآن كبحث الأحرف السبعة، وتوالت بعده كتب التفسير بالمأثور والمعقول والجمع بينهما.

هذا مايتعلق بعلوم التفسير أما ما يطلق عليه علوم القرآن، فلم يتناول أحد تدوين هذا العلم ككل بل شرحوا أبعاضه وأجزاءه، فعلي بن المديني شيخ الإمام البخاري (المتوفي في سنة ٢٣٤هـ) كتب في أسباب نزول القرآن، وأبو عبيد بن سلام (المتوفي سنة ٢٢٤هـ) كتب الناسخ والمنسوخ، ومن كُتّاب علوم القرآن في القرن الرابع الهجري، أبو بكر السجستاني الذي ألّف في غريب القرآن. وفي القرن الخامس علي بن سعيد الحوفي الذي ألّف في إعراب القرآن. وفي السادس كتب السهيلي في مبهمات القرآن ثم انهالت التآليف في كل فن، كالقراءات، وأسباب النزول والإعجاز، والأمثال والقرآن وحججه وجدله.

ويرى الشيخ الزرقاني أن أول عهد لظهور هذا الاصطلاح هو القرن الرابع الهجري إذ كتب علي بن إبراهيم بن سعيد الشهير بالحوفي المتوفي سنة ٣٣٠هـ كتابه «البرهان في علوم القرآن»، - وهو بالطبع غير كتاب الزركشي - والموجود منه حالياً خمسة عشر جزءا ويبدو من طريقته أنه كتاب تفسير، وإن تعرض من خلال تفسيره إلى شذرات في علوم

القرآن، التي يظن أنه قد تعرض لها بإسهاب في المقدمة المفقودة من تفسيره مع الأجزاء الخمسة عشر الأولى، ولم يبق بأيدينا إلاَّ النصف الآخر من الكتاب.

وفي القرن السادس كتب ابن الجوزي كتابه - فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن - الذي وصفه السيوطي [ بأنه لم يقرأ مثله ولا قريباً منه ]، وهو موجود في دار الكتب المصرية وهو كتاب صغير الحجم، فيه مباحث بسيطة كعد كلمات القرآن وحروفه، والكتاب قد حققه محمد إبراهيم سليم ونشرته مكتبة السباعي بالرياض. وأرجح أن الذي وصفه لنا السيوطي مازال مفقوداً.

وفي القرن السابع ألف علم الدين السخاوي المتوفي سنة ٦٤١هـ كتابه جمال القراء وقد حققه زميلنا عبد الكريم الزبيدي ونشر في بيروت.

وجاء القرن الثامن فكان كتاب البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي ت «٧٩٤هـ» وهو من أوسع كتب علوم القرآن، وكتابه يقع في أربعة مجلدات، وتلاه في القرن الثامن محمد بن سليمان الكافيجي المتوفي سنة ٨٧٣هـ غير أن كتابه كما قال السيوطي : (لم يشف غليلاً، ولم يهد إلى المقصود سبيلاً). وتلاه جلال الدين البلقيني، وكتابه «مواقع العلوم من مواقع النجوم» وقد ضمنه السيوطي المتوفي ٩١١هـ في كتابه « التحبير في علوم التفسير». وألف كتابه القيم «الإتقان في علوم القرآن» الذي يعتبر عمدة في بابه.

## بين البرهان والإتقان في علوم القرآن :

هذان كتابان من خير الكتب وأوسعها في علوم القرآن، أما البرهان للزركشي فهو السابق للإتقان. وهذا الكتاب يتناول الموضوعات تناولاً موسعاً شافياً وافياً.

وأفاد منه السيوطي كثيراً، وقد أستوفى جميع أبوابه وأنواعه ولكنه أوجزها وأضاف إليها أنواعاً أخرى وجعلها ثمانين نوعا. وكتابه يعوزه التحقيق الذي يقوم به حالياً قسم التفسير بجامعة الأزهر، وقد أشرف الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفه رئيس القسم على رسالة في تحقيق جزء منه وهو مزمع على إكماله إن شاء الله.



وأخيراً فإن كتب علوم القرآن في هذا العصر لا تعد ولا تحصى فلا تخلو كلية من كليات الشريعة وأصول الدين من كتاب يؤلفه مدرسو المادة منفردين أو مجتمعين، وأشهر الكتب مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ الزرقاني وهو أوسع هذه الكتب انتشاراً مع ما فيه من إعواز إلى التمحيص في كثير من القضايا، ومن هذه الكتب وأقيمها كتاب البيان في علوم القرآن للشيخ عبد الوهاب غزلان ولكنه قاصر على بعض الأبحاث كجمع القرآن الذي نال عنايته.

ومن أقدم كتب علوم القرآن في بلاد الشام مألفه الشيخ د. صبحي الصالح «مباحث في علوم القرآن» كما ألف الأستاذ الدكتور عدنان زرزور كتابه القيم علوم القرآن.

## الفصل الأول

# القرآن الكريم

المبحث الأول : معناه .

المبحث الثاني : أسماؤه .

المبحث الثالث : لغة القرآن .

المبحث الرابع : إعجاز القرآن .

المبحث الخامس : القصة في القرآن .

المبحث السادس : ترجمته .

# المبحث الأول

## تعريف القرآن لغة وشرعاً

### ١ – المعنى اللغوي :

(أ) يرى بعض علماء اللغة أن القرآن مصدر على وزن (فُعلان) كالغفران والرجحان والشكران، فهو مهموز اللام من قرأ يقرأ قراءة وقرآناً، بمعنى تلا يتلو تلاوة ثم نقل في عرف الشرع من هذا المعنى وجعل عَلَماً على مقروء معين وهو من باب تسمية المفعول بالمصدر، وقد ورد بهذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ (١)

وقد روى الشيخان رضي الله عنهما في سبب نزولها ما يفيد هذا المعنى عن ابن عباس أنه قال : « كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه، يريد أن يحفظه فأنزل الله : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ . . . . . ﴾ الآية » .

فكان النبي ﷺ إذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق، وفي لفظ «استمع» فإذا ذهب قرأه كما وعد الله (٢). فهذا الأثر عن ابن عباس يدل بجلاء ووضوح على المعنى المذكور.

وقد روعي في تسميته قرآناً كونه متلواً بالألسن، كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام. فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه (٣).

(ب) وذهب الشافعي ورجح قوله السيوطي إلى أن **القرآن** عَلَمٌ غير مشتق فهو اسم لكتاب الله مثل سائر الكتب السماوية (٤).

---

(١) سورة القيامة : آيات ١٦ – ١٨ .

(٢) صحيح البخاري . كتاب بدء الوحي . باب كيف كان بدء الوحي، ومسلم في صحيحه . كتاب الصلاة . باب الاستماع للقراءة ١ / ٣٣٠ ، ح ١٤٨ .

(٣) النبأ العظيم، لمحمد عبد الله دراز، ص ١٢ ، دار القلم – الكويت.

(٤) الإتقان في علوم القرآن، ١ / ٥١ .



### ٢ – المعنى الشرعي :

لقد عرَّف علماء الأصول والكلام القرآن بتعريفات كثيرة ، وأحسن هذه التعاريف وأقومها قول القائل إنَّ القرآن [ (هو كلام الله المعجز المنَّزل على محمد ﷺ المنقول تواتراً والمتعبد به تلاوة) ].

فكلام الله المعجز، قد أخرج كلام غير الله، فهو ليس بكلام إنس ولاجن ولا ملائكة ولا نبي أو رسول، فلا يدخل فيه الحديث القدسي ولا الحديث النبوي.

وخرج بقيد – المنزل على النبي محمد ﷺ – الكتب المنزلة على الرسل من قبله كصحف إبراهيم، والتوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى عليهم السلام.

أما القيد – المنقول تواتراً – فقد أخرج به كل ما قيل أنه قرآن ولم يتواتر، مثل القراءات الشاذة غير المتواترة فإنها رويت على أنها من القرآن إلاَّ أن نقلها آحاداً قد جعلها غير معتبرة، فلا يعتبر من القرآن قراءة ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ﴾ (١) . فقد زاد (متتابعات)، ولا قراءته كذلك في قوله تعالى : (وآتيتم إحداهن قنطاراً «من ذهب» فلا تأخذوا منه شيئاً) (بزيادة من ذهب) (٢)، أو قراءة ابن عباس : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم «في مواسم الحج») (٣). بزيادة (في مواسم الحج) ولا قراءة من قرأ (والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما) بدل أيديهما، فما زيد أو بُدِّل في هذه القراءات وأمثالها لا يصح اعتبارها قرآناً حتى ولا حديثاً نبوياً لأنها نسبت إلى قارئها فلا يعدو اعتبارها أكثر من أنها تفسير أو رأي للمثبت لها.

أما القيد الأخير المتعبد به تلاوة – فقد خرج به الحديث القدسي فإنه وإن كان منسوباً إلى الله إلاَّ أنه غير متعبد بتلاوته كما سنبينه بعد.

---

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن، تحت عنوان : القراءات ؛ وكذلك كتب التفسير في سورة المائدة آية ٨٩ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير لسورة النساء، ١ / ٤٦٧ .

(٣) انظر الإتقان، تحت بحث القراءات، ١ / ٨٣ .

## المبحث الثاني

## أسمـــاء القـــرآن

صنف أحد العلماء في أسمائه جزءاً وذكر نيفاً وتسعين اسماً وذكر بعضهم أقل من ذلك، قال القاضي أبو المعالي رحمه الله : اعلم أن الله تعالى سمى القرآن بخمسة وخمسين اسماً، وقد ذكر صاحبا البرهان والإتقان وجوهاً للتسمية ومعانيها، أما الطبري فقد اكتفى بذكر أشهرها مبيناً معانيها، من هذه الأسماء :

١ - سماه الله تعالى كتاباً فقال : ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾(١).

والكتاب مصدر كتب يكتب كتابة وأصلها الجمع، وسميت الكتابة لجمعها الحروف فاشتق الكتاب لذلك لأنه يجمع أنواعاً من القصص والأحكام والأخبار على أوجه مخصوصة.

٢ - وسماه ذكراً فقال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾(٢).

وذلك لما فيه من المواعظ والتحذير وأخبار الأمم الماضية، والذكر أيضاً يأتي بمعنى الشرف والفخر لمن آمن بالقرآن وصدق بآياته ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾(٣). أي شرف لك ولقومك.

٣ - وسماه فرقاناً فقال : ﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعلمين نذيراً﴾ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾(٤).

(١) سورة الجاثية : الآيتان ١ ، ٢.
(٢) سورة الحجر : آية ٩.
(٣) سورة الزخرف : آية ٤٤.
(٤) سورة الفرقان : آية ١.



وذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل، والمؤمن والمنافق، والمسلم والكافر، وقيل لأنه مفروق بعضه عن بعض في النزول (١).

أما ابن عباس فكان يقول : الفرقان المخرج.

وقال آخرون : الفرقان هو الفرق بين الشيئين والفصل بينهما وقد يكون ذلك بقضاء واستفتاء وإظهار حجة وغير ذلك من المعاني المفرقة بين المحق والمبطل، والقرآن إنما سمي فرقاناً لفصله بحجته وأدلته وحدوده وفرائضه وسائر معاني حكمه بين المحق والمبطل، وفرقانه بينهما تبصرة المحق وتخذيله المبطل حكماً وقضاء (٢).

٤ - وسماه التنزيل : وقد وردت بذلك آيات كثيرة : ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣﴾ (٣).

وغيرها من الآيات، والتنزيل مصدر سمي به الكلام المنزل من عند الله على رسوله، وتسميته بذلك من قبيل تسمية المفعول بالمصدر وهو من الأسماء الشائعة على ألسنة العلماء حيث يقولون ورد في التنزيل ويعنون القرآن.

٥ - وأسماء أخرى، بل صفات كثيرة منها مبارك كما ورد في قوله تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ. . .﴾ (٤).

والحكيم كما في قوله تعالى : ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ (٥).

والمجيد كما في قوله : ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ (٦).

وغيرها من الأسماء والصفات ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتابي البرهان والإتقان في علوم القرآن.

(١) مناهل العرفان ١ / ٨
(٢) التبيان في علوم القرآن ص١٢٢.
(٣) سورة الشعراء : آية ١٩٢ - ١٩٣.
(٤) سورة ص : آية ٢٩.
(٥) سورة يس : الآيتان ١ ، ٢.
(٦) سورة ق : آية ١.

## الفرق بين القرآن والحديث القدسي :

قد ينسب الحديث تارة إلى النبي ﷺ فيقال حديث النبي، وقد ينسب إلى القُدُس فيقال الحديث القدسي [1] والحديث كما عرفه العلماء هو ما نقل عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، فالأقوال التي تصدر عن النبي ﷺ تعتبر من الأحاديث النبوية فإذا ما نسبت إلى الله عز وجل سماها العلماء أحاديث قدسية وذلك كقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قـــال :

«يـاعبـادي : إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلاتظالموا.

يـا عبـادي : كلكم ضال إلاَّ من هديته فاستهدوني أهدكم.

يـا عبـادي : كلكم جائع إلاَّ من أطعمته فاستطعموني أطعمكم.

يـا عبـادي : كلكم عار إلاَّ من كسوته فاستكسوني أكسكم.

يـا عبـادي : إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم.

يـا عبـادي : إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يـا عبـادي : إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلايلومنَّ إلاَّ نفسه» [رواه مسلم] [2].

ومثل قول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه : « أنا عند ظن عبدي بي، فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذَكَرْتُه في ملأ خيرٌ من ملئه» [رواه البخاري ومسلم والترمذي] [3].

(١) أقدم الكتب في هذا الموضوع مشكاة الأنوار فيما يروى عن الله لمحيي الدين بن العربي والجامع الكبير، للسيوطي، وكذلك الجامع الصغير. كتاب الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية لعبد الرؤوف المناوي، وكتاب أدب الأحاديث القدسية لأحمد الشرباصي.

(٢) صحيح مسلم. كتاب البر والصلة والآداب. باب تحريم الظلم ٣ / ١٩٩٤ ح ٥٥.

(٣) صحيح البخاري. كتاب التوحيد. باب قوله تعالى : « يريدون أن يبدلوا كلام الله» ، صحيح مسلم كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها ٣ / ٢١٠٢ ح ١ ، سنن الترمذي. كتاب الدعوات ٥ / ٥٨١ ح ٣٦٠٣.



والمتأمل في نصوص الأحاديث القدسية يلاحظ وحدة الأسلوب بينها وبين الأحاديث النبوية، فكلها قد وقع بلفظ النبي ﷺ سواء أكان الحديث نبوياً أم قدسياً فكلاهما في مرتبة واحدة، وإن كان الحديث القدسي منسوباً إلى الذات العلية [1]. وأن هذه النسبة أيضاً لا تجعله في مرتبة القرآن بل إن بينهما فروقاً نوجزها فيما يلي :

١ - أن القرآن الكريم لفظاً ومعنى من الله عز وجل، أما الحديث القدسي فهو كالحديث النبوي حتى أجاز العلماء روايته بالمعنى، بخلاف القرآن لأن روايته بالمعنى تحريف وتبديل له.

٢ - ولأن القرآن بلفظه ومعناه من الله فقد وقع به التحدي والإعجاز، أما الحديث القدسي فلم يقع به التحدي، فهو في ذلك كالحديث النبوي سواء بسواء.

٣ - أن القرآن متعبد بتلاوته فتالي القرآن مثاب على تلاوته عموماً، وتلاوته في الصلاة ركن من أركانها فلا تتم الصلاة بدونه : ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [2].

وهذا بخلاف الحديث القدسي فإنه كالحديث النبوي لو قرئ في الصلاة بطلت.

٤ - كل آي القرآن الكريم - آية آية - متواترة والأحاديث القدسية كالأحاديث النبوية فيها القطعي الثبوت وأكثرها ظني في ثبوته.

بعد كل هذا لا يخطرن على بالك أو يدور في خلدك أن الحديث القدسي كالقرآن الكريم لقول الراوى قال ﷺ فيما يرويه عن ربه، أو روى الرسول عن ربه عز وجل، فإن هذه الشبهة مردودة وباطلة، وما قول النبي ﷺ هذا إلاَّ ضرب من ضروب الأساليب العربية الشائعة الذائعة المستعملة في لسان العرب حين يقولون : كقول الشاعر في قصيدته كذا وكذا ثم لا يذكرون بيت الشعر لفظاً بل يوردون معانيه من غير مراعاة لحرفية الألفاظ ولا الأوزان والقوافي الشعرية، بل إن في القرآن الكريم خير شاهد على ما نقول، فقد قص الله عز وجل قصص الأنبياء وجدالهم مع قومهم ولم يذكر عين ألفاظهم التي استعملوها بل ذكر مضامينها ومعانيها مصوراً لنا مواقفهم بأفصح الألفاظ وأنصح البيان،

(١) يطلق بعض العلماء على الأحاديث القدسية الأحاديث الإلهية أو الربانية والكل معزو إلى الله أو إلى الرب عز وجل.

(٢) سورة المزمل : آية ٢٠ .

قال تعالى في سورة نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ (١).

فهل هذه الألفاظ القرآنية هي الألفاظ عينها التي قالها نوح عليه السلام؟ أو هي مضمون ومعنى ما قاله وقالوه...؟ وهل حين قص الله عن غيره من الرسل قصصاً هي ألفاظهم عينها ؟.

اللهم لا لقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(٢).

* * *

(١) سورة نوح : آيات ٥ - ١١ .
(٢) سورة إبراهيم : آية ٤ .



## المبحث الثالث

# لغـــة القـــرآن

إن الترابط بين القرآن واللغة ترابط شديد الصلة، بل ارتباط الصفة بالموصوف التي لا تنفك عنه «بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ »(١). فلا غرو إذا قلنا إن التهجم على اللغة هو تهجم على القرآن، والنيل من اللغة هو نيل من القرآن، والمحاولات والمعاول التي تهدم لغتنا انما هي معاول هدم لقرآننا وكياننا كله.

وقد طالعنا طالع سوء من المحدثين يزعم «أن القرآن قد حوى في آياته الفاظاً أعجمية، فهو أعجمي مزيج من لغات شتى ... ».

هذا الزعم والادعاء في واقعه ليس بجديد، بل هو دعوى قديمة دحضها القرآن الكريم واصفاً إياها بأنها منطق الذين يلحدون في القرآن، فملحدوا اليوم هم ببغاوات الملحدي الأمس، لذا كان لزاماً على من يحمل في جعبته سهاماً أن يرميهم بسهمه، وأن يرد كيدهم إلى نحورهم، وسنحاول بعون الله تعالى أن نعرض لهذه القضية القديمة الحديثة في آن واحد، وأن نرد عليهم بأدلة قاطعة، وبراهين ساطعة، وأن نبين زيف هذه الأفكار الغاشمة وأن نتناول فيه جانباً من الجوانب التي تعنينا في علوم القرآن تاركين الجوانب الأخرى لمن هو أهل لها.

هذا الجانب يتناول قضية احتواء القرآن لألفاظ معربة عن أصول أعجمية، وهي قضية استحوذت على علمائنا الأقدمين والمحدثين على حد سواء، وكانت مثار اهتمامهم، فتعددت وتضاربت فيها الآراء والمذاهب ما بين مثبت وناف، والمثبتون قد اختلفوا في حصر هذه الكلمات بين مكثر ومقل، فقد حصرها الإمام الغزالي في كلمتين أو ثلاث، وحصرها تاج الدين السبكي بسبع وعشرين لفظاً ونظمها شعراً، وزادها الإمام الحافظ ابن

(١) سورة الشعراء آية ١٩٥ .

حجر العسقلاني أربعاً وعشرين لفظاً ونظمها شعرا أيضا، كما زادها الإمام السيوطي بضعاً وستين لفظاً فتمت أكثر من مائة لفظ [1].

وسنرى فيما بعد القول الحق في حقيقة هذا الحصر الادعائي.

وقبل أن نخوض في مذاهب العلماء في وقوع المعرب في القرآن، هاك بعض هذه الالفاظ:

سئل ابن عباس عن قوله تعالى:

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [2] قال هو بالعربية الأسد، وبالفارسية جاد، وبالقبطية أريا، وبالحبشية قسورة، وحين سئل ابن عباس عن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [3] قال: حوباً بلغة الحبشة، وبالعربية إثماً.

وعن ابن مسعود أنه فسر لفظ ناشئة في قوله تعالى من سورة المزمل: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [4] قال الناشئة هي بالحبشية، وبالعربية قيام الليل، وبما روى عن مجاهد أنه فسر القسط في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [5] قال إن القسط بالرومية وبالعربية العدل.

وقد أورد السيوطي ما في القرآن عن بعض الألسن، فما ورد بلسان الحبشة الأرائك بمعنى السرر، وأواه: المؤمن بمعنى الرحيم، وطوبى اسم للجنة.

وبلسان العبرية مرقوم بمعنى مكتوب، وراعنا وهي كلمة سب عند اليهود.

وبلسان الروم فصرهن أي قطعهن، وطفقا أي قصدا، والفردوس بمعنى البستان.

وبلسان الفرس: سجيل عن مجاهد: سجيل أولها حجارة وأخرها طين، وسرادق بمعنى الدهليز، والسندس بمعنى دقيق الديباج.

وبالنبطية: بأيدي سفرة أي بأيدي القراء.

---

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن والمتوكلي ومقدمه تفسير ابن جرير ص٣.
(٢) سورة المدثر آية ٥١. (٣) سورة النساء آية ٢. (٤) سورة المزمل آية ٦
(٥) سورة النساء آية ١٣٥.



وبالسريانية: أسفار بمعنى الكتب، وكلمة شهر ذكر بعض أهل اللغة أنها سريانية كذلك [1].

وبعد: فهذه كلمات وألفاظ قرآنية قلّت أو كثرت جرى فيها خلاف في ثلاثة آراء نسوقها إليك مع المناقشة والترجيح في نهاية المطاف.

الفريق الأول: وعلى رأسهم الامام الشافعي الذي شدد النكير على القائلين إن في القرآن غير لغة العرب فأخذ يقيم الحجة بأن القرآن كله عربي، لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [2]. وقوله تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [3].

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [4].

**يقول الشافعي في رسالته:**

ومن جماع علم كتاب الله العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب.. فالواجب على العالمين ألا يقولوا إلا من حيث علموا، وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساك أولى به، وأقرب إلى السلامة له إن شاء الله.

فقال قائل منهم: إن في القرآن عربياً وأعجمياً، والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب، ووجد قائل هذا القول من قبل ذلك منه تقليدا له، وتركاً للمسألة عن حجته ومسألة غيره ممن خالفه، وبالتقليد أغفل من أغفل منهم، والله يغفر لنا ولهم، ولعل من قال إن في القرآن غير لسان العرب، وقبل ذلك منه، ذهب إلى أن من القرآن خاصاً يجهل بعضه بعض العرب، ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء، على عامتها حتى يكون موجوداً فيها من يعرفه، والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل

---

(١) تفسير ابن جرير ص٦ - ٧.
(٢) سورة يوسف آية ٢.
(٣) سورة فصلت آية ٣.
(٤) سورة الشعراء آيات ١٩٢ - ١٩٥.

الفقه، لا نعلم رجلاً جمع السنن فلم يذهب منها شئ فإذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن، وإذا فرق علم كل واحد منهم، ذهب عليه الشيء منها، ثم كان ماذهب عليه منها موجوداً عند غيره[١].

وأما الطبري فقد قال : إن الذي قالوه من ذلك غير خارج من معنى ما قلنا، من أجل أنهم لم يقولوا : هذه الأحرف ومأأشبهها لم تكن للعرب كلاماً، ولاكان ذلك لها منطقا قبل نزول القرآن، ولاكانت به العرب عارفة قبل مجيء الفرقان، فيكون ذلك قولا لقولنا خلافاً. إنما قال بعضهم : حرف كذا بلسان الحبشة معناه كذا، وحرف كذا بلسان العجم معناه كذا. ولم يستنكر أن يكون من الكلام ما يتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة، وذلك كالدرهم، والدينار، والدواة، والقلم والقرطاس، وغير ذلك مما يتعب احصاؤه ويمل تعداده، لذا كرهنا إطالة الكتابة بذكره مما اتفقت فيه الفارسية والعربية باللفظ والمعنى، ولعل ذلك كذلك في سائر الألسن التي يجهل منطقها ولا يعرف كلامها. فلو أن قائلاً قال فيما ذكرنا من الأشياء التي عددنا وأخبرنا اتفاقه في اللفظ والمعنى بالفارسية وبالعربية ومأأشبه ذلك، مما سكتنا عن ذكره، كلُّه فارسي لا عربي. أو ذلك كله عربي لا فارسي، أو قال : بعضه عربي وبعضه فارسي، أو قال : كان مخرج أصله عند العرب، فوقع إلى العجم فنطقوا به، أو قال : كان مخرج أصله من عند الفرس فوقع إلى العرب فأعربته كان مستجهلاً، لأن العرب ليست بأولى أن تقول كان مخرج أصل ذلك إلى العجم، ولا العجم بأحق أن تقول كان مخرج أصل ذلك عنها إلى العرب، إذا كان استعمال ذلك بلفظ واحد ومعنى واحد موجوداً في الجنسين.. ثم قال : وهذا المعنى الذي قلناه في ذلك هو معنى قول من قال : في القرآن من كل لسان عندنا بمعنى أن فيه من كل لسان، اتفق فيه لفظ العرب ولفظ غيرهم من الأمم التي تنطق به نظير ما وضعنا من القول فيما مضى، وذلك أنه غير جائز أن يتوهم على ذي فطرة صحيحة مقر بكتاب الله ممن قرأ القرآن وعرف حدود الله أن يعتقد أن بعض القرآن فارسي لا عربي، وبعضه حبشي لا عربي، بعد ما أخبر الله تعالى أنه جعله قرآناً عربياً[٢].

---

(١) الرسالة للشافعي. تحقيق أحمد شاكر. ص ٤١ - ٤٣.

(٢) جامع البيان ص ١ / ٧ - ٨.



وقد ذهب فخر الدين الرازي المفسر، والعالم اللغوي ابن فارس إلى هذا الرأي وأطال الاستشهاد على صحة هذا القول، ومما قاله « لو كان في القرآن الكريم من غير لغة العرب شيء لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان مثله، لأنه أتى بلغات لا يعرفونها »[١].

هذه أدلة الإمام الشافعي ومن معه، ويجدر بالذكر أن هذا الفريق وإن كان يقول إن جميع ألفاظ القرآن عربية إلا انه لا ينكر موافقة لسان العرب للسان العجم كما يقول الشافعي، ولا ينكر إذا كان اللفظ قيل تعلمه أو نطق به موضوعاً، أن يوافق لسان العجم أو بعضها قليلاً من لسان العرب، كما يتفق القليل من ألسنة الأعاجم المتباينة في أكثر كلامها مع تنائي ديارها، واختلاف لسانها، وبعد الأواصر بينها وبين من وافقت بعض لسانه[٢].

ويمثل أبو عبيد على ذلك بالمثال التطبيقي فيقول « وقد يوافق اللفظ اللفظ ويفارقه ومعناهما واحد، أحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها، فمن ذلك الإستبرق بالعربية، وهو الغليظ من الديباج، وهو استبره بالفارسية، ثم ختم أبو عبيد كلامه بقوله « من زعم أن في القرآن لسانا سوى العربية فقد أعظم القول »[٣].

يقول أبو بكر الباقلاني القرآن عربي لا عجمة فيه، فكل كلمة في القرآن استعملها أهل لغة أخرى فيكون أصلها عربيا إنما غيَّرها غيُرهم تغييراً ما، كما غيَّر العبرانيون فقالوا : للإله : لاهوت، وللناسك : ناسوت.

أما الفريق الثاني فهو فريق المتساهلين الذين حكموا بأن القرآن شامل لجميع لغات العالم في زمنهم، استنادا لقوله تعالى ﴿مافرطنا في الكتاب من شيء﴾ فالآية حسب زعمهم شاملة وعامة، لذا قالوا إن القرآن فيه من كل لهجة عربية بل باللغات الشائعة في زمن نزوله، كالفارسية والرومية والعبرية، لذا فقد تساهلوا وتوسعوا في الألفاظ الوافدة التي استعملها القرآن الكريم ظنا منهم أنها مزية من مزاياه في عدم التفريط بشموليته لسائر اللهجات واللغات. قال الثعلبي : إنه ليس لغة في الدنيا إلا وهي في القرآن.

---

(١) انظر الصاحبي لابن فارس ص ٤٦ والاتقان ١٧٨.

(٢) الرسالة للامام الشافعي ص ٤٤ ٤٥.

(٣) الصاحبي ص ٤٣ ٤٤.

ويرى أن وقوع هذه الألفاظ في القرآن إنما يدل على حكمة احتوائه لعلوم الأولين والآخرين، ومن ضمن ذلك إحاطته بجميع اللغات والألسن.

مما تقدم يتبين لنا أن هناك خلافاً بين الفريقين، وهو خلاف حقيقي لا شكلي، وعلى الرغم من وضوح حقيقة الخلاف إلا أن أبا عبيد بن سلام قد صبغ الخلاف وفاقاً.

(قال أبوعبيد القاسم بن سلام إن القرآن كله عربي وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم في أحرف كثيرة من غير لسان العرب مثل سجيل ومشكاة واليم والطور وأباريق واستبرق وغير ذلك فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيد ولكنهم ذهبوا إلى مذهب، وذهب هذا إلى غيره، وكلاهما مصيب إن شاء الله تعالى، وذلك أن هذه الحروف بغير لسان العرب في الاصل، فقال اولئك على الاصل ثم لفظت به العرب بألسنتها فعرّبته فصار عربياً بتعريبها إياه فهي في هذه الحال أعجمية الأصل).

وعلق الشيخ الزفزاف فقال: (وهذا الرأي الذي ذكره أبو عبيد إنما أراد به أن يجعل الخلاف بين الفريقين السابقين لفظياً. والذي يظهر لي أنه ليس كذلك لأن الإمام الشافعي ومن معه لم يكونوا يجهلون أن العرب إذا تكلمت اللفظ الاعجمي يصبح عربياً ولكنهم كانوا يرون أن القطع بأن هذه الألفاظ أعجمية الأصل لا سبيل إليه. كما يفهم ذلك من القرآن وكما يفهم من كلام القاضي أبي بكر الباقلاني وهم يرون غلق هذا الباب)[1].

ثم استدل هذا الفريق أولاً: - بالآية القرآنية ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾[2].

ووجه الدلالة في الآية أن كل رسول مرسل إلى قومه، فيتحدث بلسانهم والنبي ﷺ مرسل إلى كل الأمم فلابد أن يكون في الكتاب المبعوث إليهم من لسان كل قوم ان كان أصله بلغة قومه هو.

ثانياً: ورد في القرآن الكريم أعلام أعجمية وهي كما يقول علماء النحو ممنوعة من الصرف وعلة ذلك العلمية والعجمة، وإذا اتفق على وقوع الأعلام فلا مانع من وقوع الأجناس.

(١) القرآن والحديث للشيخ الزفزاف.
(٢) سورة إبراهيم آية ٤.



ثالثاً: - أما الدليل الأخير فهو القياس كما ذكره ابن جني «ان ما قيس على كلام العرب، فهو من كلام العرب»[1].

الفريق الثالث: وهو الوسط بين الفريقين فليس بمبالغ ولا متساهل، ذلك أنه أثبت وجود كلمات أعجمية، ولكنها لما عربت أصبحت عربية، فوصف القرآن بأنه عربي صحيح، لأن المعرب كالعربي سواء بسواء، وبهذا القول يكون قد وافق فريق المتساهلين، ولكنه يخالفه في الإفراط بالكم من هذه الكلمات إلى درجة إثبات أن القرآن فيه كل اللغات واللهجات، أو على حد تعبيرهم في القرآن من كل لسان عربي. أما وجه مخالفة الفريق الثالث للفريق الأول فإن العرب في جاهليتهم قد استعملوا كلمات أعجمية. ولكنهم لاكوها بألسنتهم وأخضعوها لتفعيلاتهم. فأصبحت معربة، فأمرؤ القيس استعمل لفظة السجنجل في معلقته المشهورة:

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

والسجنجل بمعنى المرآة وهي لفظة معربة[2] لم يستعملها العرب من قبل، والتعريب في هذه الألفاظ لا يكون بأخذها كما وردت عن الأعاجم، بل لابد من صياغتها على تفعيلة من التفعيلات العربية، كأفعل وفعل وفاعل وافتعل واستفعل وغيرها، فإن وافقتها أخذ بها، وإلا أنقص أو بدل حرف منها حتى توافق أوزان التفعيلات، فالتعريب هو صوغ الكلمة الأعجمية صياغة جديدة بالوزن والحروف العربية، وبهذا دخلت الألفاظ الأعجمية إلى اللغة العربية ولكنها أصبحت عربية حين لاكتها العرب بألسنتها، نعم إننا لا نستطيع أن نجزم أن جميع الألفاظ التي أوردها بعض العلماء هي ألفاظ أعجمية في الأصل، لأن القطع بهذا يحتاج إلى تتبع اللفظ والتنقلات التي اعتورته حتى نصل إلى منشئه الأصلي، هذا أولاً.

ثانياً: إن الفريق الأول الذي استدل على عربية القرآن وأنه ليس فيه كلمة معربة بمعنى أن أصلها أعجمي، ثم نقلت إلى العربية قد خالفوا سنة التأثير والتأثر بين اللغات.

(١) خصائص جـ ١، ص ٣٥٧.
(٢) انظر شرح المعلقات السبع للزوزني.

وحكموا أن اللغة العربية قد أثرت في اللغات الأخرى على الدوام والاستمرار، فقد أثرت ولم تتأثر، وأقرضت ولم تستقرض، ويعللون هذه الظاهرة بأحد أمرين كما يقول الشيخ أحمد شاكر [1]:

أولهما: أن العرب من أقدم الأمم، ولغتها من أقدم اللغات وجوداً، كانت قبل إبراهيم وإسماعيل، وقبل الكلدانية والعبرية والسريانية، وغيرها، بله الفارسية. وقد ذهب منها الشيء الكثير بذهاب مدنيتهم الأولى قبل التاريخ، فلعل الألفاظ القرآنية، التي يظن أن أصلها ليس من لسان العرب، لا يعرف مصدر اشتقاقها، لعلها من بعض ما فقد أصله وبقي الحرف وحده.

ثانيهما: اتساع اللغة العربية

يقول الإمام الشافعي: ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي [2].

ولذا وجدنا ابن عباس مع علمه الواسع يخفى عليه معنى «فاطر» فروي عنه أنه قال «كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها أي بدأتها» [3].

ونظراً لاتساع اللغة العربية فقد رأوا أنها المصدر لتلك اللغات أو المؤثر والمقرض لتلك اللغات، فقد أعطت ولم تأخذ، وأثرت ولم تتأثر، وأقرضت ولم تقترض. الخ.

١ - إن قضية أقدمية اللغة العربية غير مسلم بها، والنظريات في الأقدميات لم تستقر على حال، وهي أدلة ظنية، وهناك كلام طويل في لغة أدم عليه السلام وكلام طويل في توقيفية اللغة ووضعها من البشر، والخلاف في هذه القضية طويل وعريض.

ولكن من المسلم به أن اللغات قد عايشت بعضها بعضاً، وأحتك البشر مع البشر،

(١) انظر تقديم أحمد شاكر لكتاب الرسالة.
(٢) الرسالة للإمام الشافعي.
(٣) تفسير ابن كثير لمطلع سورة فاطر.



فجريا على سنة التأثير والتأثر جرى الإقراض والاقتراض، واللغة العربية لم تخرج عن هذه السنة، وليست لغة بأولى من لغة في هذه السنة.

٢ - أما القول بأن اللغة العربية من أوسع اللغات فلا يحتم ذلك أن تكون دوما هي المؤثر الذي لا يتأثر، والمقرض الذي لا يقترض.

مجمل القول أن أقدمية اللغة وسعتها لا يمنع شيئاً مما قلناه وأقصى ما يمكن قوله أنها اللغة الأكثر تأثيرا وإقراضاً وهذا الأمر الصواب.

٣ - أما القول بأن ابن عباس قد خفي عليه معنى فاطر، فلا ينهض دليلاً على ما تقولون، لأن خفاء المعاني على العلماء لا يدل على سلب أو إيجاب في هذا المقام.

القرآن ابن عباس الذي دعا له النبي ﷺ «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» ووافقه تلميذه ابن مجاهد وعكرمة فهم أعلم بالتأويل كما يقول أبو عبيد مخالفاً شيخه أبا عبيدة.

«فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيدة» [1] وقد روى عنهم أقوال في بيان الأصل الأعجمي لبعض الألفاظ القرآنية، وهذا غير مانع من وضعها بالعربية لأن تعريب العرب لها جعلها عربية، فهي أعجمية في الابتداء، عربية في الانتهاء وكما يقول ابن جني فما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم.

قال ابن عطية: فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية، لكن استعملتها العرب وعربتها فهي عربية بهذا الوجه، فقد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، وبرحلتي قريش، كسفر «مسافر بن أبي عمرو» إلى الشام، وكسفر «عمر بن الخطاب» وكسفر «عمرو بن العاص» و«عمارة بن الوليد» إلى أرض الحبشة، وكسفر «الأعشى» إلى «الحيرة» وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة، فعلقت العرب بهذا كله ألفاظاً أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها، وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها، حتى جرت مجرى العربي الصحيح، ووقع بها البيان. وعلى هذا الحد نزل بها القرآن، ثم تابع ابن عطية

(١) المعرب للجواليقي ص ٥٣ والمهذب للسيوطي ص ١٨.

حديثه فقال رداً على الطبري: «وما ذهب إليه الطبري رحمه الله من أن اللغتين اتفقتا لفظة لفظة بذلك بعيد، بل أحدهما أصل والأخرى فرع، وليس بأولى من العكس ..»[1].

إن هذا القول لا يقلل من شأن عربية القرآن لا من قريب ولا من بعيد، بل يدل على مرونتها واتساعها لما هو مستحدث وجديد، وكما قيل ولنا أن نضيف إليها كلمات لم تكن مستعملة من قبل، ولقد أضاف لها العرب في جاهليتهم وإسلامهم، وصبوا ذلك في قوالبهم وأصبحت الألفاظ المعرّبة عربية فصيحة.

* يقول السيوطي: وقد رأيت الجويني ذكر لوقوع المعرب في القرآن فائدة أخرى فقال: إن قيل إن (إستبرق) ليس بعربي، وغير العربي من الألفاظ دون العربي في الفصاحة والبلاغة، فنقول: لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة ويأتوا بلفظة تقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا عن ذلك. فمثلاً كلمة (إستبرق) إن اراد الفصيح أن يترك هذا اللفظ ويأتي بلفظ آخر لم يمكنه، لأن ما يقوم مقامه إما لفظ واحد أو ألفاظ متعددة، ولا يجد العربي لفظاً واحداً يدل عليه، لأن الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس، ولم يكن لهم بها عهد ولا وضع في اللغة العربية للديباج الثخين اسم، وإنما عربوا ما سمعوا من العجم، واستغنوا عن الوضع لقلة وجوده عندهم وندرة تلفظهم به. أما إن ذكره بلفظين فاكثر فإنه يكون قد أخل بالبلاغة، لأن ذكر لفظين لمعنى يمكن ذكره بلفظ تطويل، فعلم بهذا أن لفظ (إستبرق) يجب على كل فصيح أن يتكلم به في موضعه ولا يجد ما يقوم مقامه. وأي فصاحة أبلغ من ألا يوجد غيره مثله؟»[2].

ويؤكد هذه الحقيقة الرافعي إذ يقول: ولذا قال العلماء في تلك الألفاظ المعربة التي اختلطت بالقرآن. إن بلاغتها في نفسها أنه لا يوجد غيرها يغني عنها في مواقعها من نظم الآيات، لا إفراداً ولا تركيباً[3]، وهو قول يحسن بعد الذي بيناه.

(١) مقدمة المهذب ص ١٥ - ١٨ بتصرف. وقوع المعرب في القرآن للاستاذ محمد السيد.
(٢) المرجع السابق ٢٣١ وقارن بـ: البرهان: للزركشي.
(٣) إعجاز القرآن والبلاغة العربية ص ٧٢ - ٧٣.



## المبحث الرابع

## إعجاز القرآن

لكل رسول معجزة كدليل على نبوته ورسالته، وأنه مرسل من قبل ربه، إذ بدون ذلك لا تقع حجة الله على الخلق بالإيمان برسله، فمهما سمت أخلاق الرسول وعلت همته، وجادت قريحته، وتوقد ذهنه، وإن اقتعد المكانة الأولى في قومه، فإن كل هذا لا يكفي دليلاً على أنه مرسل من قبل الله، فلا يمكن للعقل أن يصدق ويذعن ويعترف بأن هذا رسول إلاّ بما يظهره الله على يديه من معجزات، فيخرق له السنن الكونية، أسبابها ومسبباتها، إذ المعجزة هي الأمر الخارق للعادة، وهي خارجة عن الأسباب المعروفة، هادمة للنتائج المبتناة على المقدمات، فالنار مثلا حارقة عادة، ولكنها أصبحت برداً وسلاما على سيدنا إبراهيم، فالذي جعلها حارقة على وفق السنن والقوانين التي نعرفها هو الذي جعلها تكون بردا وسلاماً، فكانت بذلك معجزة لإبراهيم عليه السلام ودليلاً على نبوته.

والمقصود من المعجزة ليس هو إعجاز الناس لذات الإعجاز أي لمجرد إيقاعهم في العجز عن الإتيان بمثل المعجزة، بل المقصود هو الإذعان والإيمان بصاحبها أنه رسول من قبل خالق هذه السنن وهو الله تعالى.

لذا فإن الله تعالى قد بعث كل رسول إلى قومه، وأظهر على يديه المعجزات التي من شأنها أن تجعل قومه يدركون إدراكاً يرفع عنهم كل لبس وغموض أن هذا رسول من عند الله، وليس بمدّع عليه، لذا كانت معجزات كل نبي ورسول نابعة من بيئته، ومتناسبة مع قومه، فتأتيهم على وفق مابرعوا فيه حتى يكون ذلك أدعى لإيمانهم. ولإقامة الحجة لأن المعجزة لا تحقق الغاية منها إلاّ إذا حصل التحدي بها ولا يتحقق التحدي لأمة من الأمم لا تعرف شيئاً عن المتحدَى به.

وإن المتتبع لآيات القرآن الكريم والمتدبر لآياته التي تتحدث عن المعجزات بشكل عام لتبرز له كل هذه المعاني التي أشرنا إليها.

فهناك معجزة موسى عليه السلام التي كانت في عصاه، وهي تتلاءم مع قوم برعوا

في السحر، إذ احترفوا السحر حرفة، ويدلنا على معرفة قومه بالسحر تلك الآيات القرآنية التي تحدثت عن فرعون ودعوته للسحرة في زمنه :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾[1].

﴿ . . . وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾[2].

﴿ . . . وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[3].

واستجاب له السحرة ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾[4].

لقد وردت مشتقات كلمة سحر، فوردت كلمة ساحر (إفراداً) والسحرة (جمعاً) ووردت بصيغة اسم الفاعل (ساحر) واسم الفاعل الموصوف (ساحر عليم) ووردت بصيغة المبالغة على وزن فعّال (سحّار) كل هذا يشعرنا بما عليه القوم من علم بالسحر وفنونه، وقوم هذا شأنهم أهل للتحدي الكبير في هذا المجال، وجعلت لهم المكافأة العظمى إن كانوا غالبين، وأية مكافأة أعظم من أن يكونوا من المقربين . . . من الطاغوت العظيم إلههم فرعون . . . لقد استُجْمِعَت جميع عناصر التحدي :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾[5].

(١) سورة يونس : آية ٧٩.
(٢) سورة الأعراف : الآيتان ١١١ ، ١١٢.
(٣) سورة الشعراء : الآيتان ٣٦ ، ٣٧
(٤) سورة الأعراف : آية ١١٣.
(٥) سورة الاعراف : الآيات ١١٥ - ١٢٥



وهكذا وقع التحدي، وانتهى التحدى بإيمان السحرة أجمعين بالله رب العالمين.

وقل مثل ذلك في معجزة عيسى عليه السلام، حين برع قومه في الطب، فجعل المعجزة من جنس ما عرفوا وبرعوا، جعل الله على يد عيسى إحياء الموتى قبل دفنهم أو بعده، وجعل مسحة من يديه تَرُدُّ الأعمى بصيراً وتبرئ الأكمه والأبرص ويكون سليماً، وأي معجزة أعظم من إحياء الموتى، وأعْلَمُ الناس إدراكاً لهذه المعجزة هم أولئك الذين يعرفون الطب وعلومه، وهم أقدرُ الناس على التمييز بين إحياءٍ حقيقي أو إحياء مزعوم، قادرون على معرفة الفارق بين حياة حقيقية بعد موت محقق أو إغفاءة نتيجة سكرات المرض ثم صحوة منه.

وقل مثل ذلك في معجزة النبي ﷺ، فلقد بعث الله تعالى محمداً ﷺ في قوم كان الكلام بضاعتهم، فرسان البلاغة والفصاحة والبيان، الشعر والخطب البليغة زادهم وشرابهم، قصيدة تجذبهم فتكون وكأنها معبود لهم، فتعلق في الكعبة أعز مكان وتكون من المعلقات، كانت أسواقهم تبادلاً وتداولاً، يتبادلون بضائعهم ويتداولون أشعارهم.

فجاءتهم معجزة من جنس ما عرفوا وألفوا، فتحداهم بالمعروف عندهم والمألوف لديهم.

بعد كل هذا قد يدور في خلدنا حيرة وتساؤل، كيف ولِمَ لَمْ تؤمن الشعوب والأمم برسالات الرسل عليهم السلام ؟ لِمَ بادروهم بالتكذيب والجحود بعد مشاهدة المعجزات البينات ؟

أقول إن الإنكار والجحود والكفر قديم قدم الرسالات السماوية، والكافرون هم الأكثر عدداً والذين خلقوا لجهنم هم الكثير من الناس :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾[1].

(١) سورة الأعراف : آية ١٧٩ .

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[1].

فهذا نوح عليه السلام يمكث في قومه ألف عام إلاّ قليلاً وهو يدعوهم ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً ومع ذلك لم يلق إلاّ إصراراً وعناداً وجحوداً : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾[2].

وهذا موسى عليه السلام قد أتي قومه بالمعجزات العظام، فعصاه يلقيها فتنقلب ثعباناً، ويضرب بها الصخر فتنفجر منه العيون، ولقد عاينوا ذلك بأعينهم. ولكن العناد والإصرار هو الدافع لهم للجحود والإنكار، حتى قالوا قولتهم الآثمة : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[3].

وهذا عيسى قد لاقى من قومه صدوداً، حتى الحواريين طلبوا منه أن ينزل عليهم مائدة من السماء فقالوا لعيسى عليه السلام : ﴿ . . . هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾[4].

وأجابهم الله بما سألوا : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾[5].

(١) سورة يوسف : آية ١٠٣.
(٢) سورة نوح : آيات ٥ - ٧.
(٣) سورة البقرة : آية ٥٥.
(٤) سورة المائدة : آية ١١٢.
(٥) سورة المائدة : آية ١١٥.



وهكذا الشأن مع رسول الله ﷺ فقد جاءهم بالمعجزة التي تذعن لها العقول، ولكن لم يؤمن بها إلاّ من هداه الله للإيمان، أما أكثر العرب فقد جحدوا بها واستيقنتها قلوبهم وأبوا إلاّ الضلال، فراحوا يقولون كما تحدث عنهم القرآن : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾[1].

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾[2].

وما هذه المواقف وما هذا الكفر والإلحاد إلاّ نتيجة إدبار واستكبار : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾[3].

## وجه الإعجاز القرآني :

يحلو لبعض العلماء أن يرى وجوهاً كثيرة في إعجاز القرآن، فبعضهم يرى من وجوه الإعجاز إخبار القرآن بالغيب، أو في نظامه التشريعي، أو الاجتماعي أو علم الجناية، أو علم الاقتصاد، أو الفلك أو الطب، وغير ذلك من العلوم التي لا تعد ولا تحصى، ويذهب للتدليل على رأيه بقوله تعالى : ﴿ . . . مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[4].

(١) سورة الإسراء : آيات ٩٠ - ٩٤.
(٢) سورة الأنعام : آية ٧.
(٣) سورة المدثر : آيات ٢٣ - ٢٥.
(٤) سورة الأنعام : آية ٣٨.

وقد ذهب بعضهم إلى كثير من المبالغة فيما يسمى بالإعجاز العلمي حتى حمّلوا النصوص القرآنية ما لا تحتمله، وما لا يقبله العقل في تأويل النصوص تأويلاً متعسفاً في كثير من الأحيان.

ونحن لا ننكر أن القرآن الكريم يتسع للكثير مما هُدِيَ إليه البشر في بعض المجالات كالطب وعلم الفلك وغيرها، وقد توسعت فيه مدارك علماء التفسير فأبرزوا لنا هذه المعاني ومدى مطابقتها للواقع ومدى احتمال الآيات القرآنية لمعانيها العلمية، فهذه العلوم تصدق القرآن ولكنها ليست وجوهاً في الإعجاز.

لهذا فإننا نحصر وجه الإعجاز القرآني في الوجه الذي تحدى به القرآن سائر العرب، نحصره في وجه واحد ألا وهو (لفظ القرآن ونظمه وبيانه) فهو الوجه الذي تحدى الله به العرب قاطبة منذ نزول القرآن وحتى هذا الزمن وسيبقى هذا الوجه هو الشاهد على القرآن بنظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك، فما هو بتحد بالأخبار بالغيب المكنون ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهر من تنزيله، ولا بعلم ما لا يدركه علم المخاطبين به من العرب، ولا بشيء مما لا يتصل بالنظم والبيان.

إن ما في القرآن من مكنونات الغيب ومن دقائق التشريع ومن عجائب آيات الله في خلقه، كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز، وإن كل ما فيه يعد دليلاً على أنه من عند الله، ولكنه لا يدل على أن نظمه وبيانه مباين لنظم كلام البشر وبيانه، وإنه بهذه المباينة كلام رب العالمين لا كلام بشر مثلهم [1].

نعم لقد تحداهم القرآن بداية بالإتيان بمثل هذا القرآن: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [2].

وتحداهم أن يأتوا بعشر سور ولو كانت هذه السور مفتريات حسب زعمهم:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ . . .﴾ [3].

(١) علوم القرآن، ص ٢٨٨؛ والكلام من مقدمة للأستاذ محمود شاكر في مقدمة لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي
(٢) سورة الإسراء: آية ٨٨.
(٣) سورة هود: آية ١٣.



بل تحداهم بسورة واحدة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [1].

هذه الآيات القرآنية المتحدية للبشرية بل للإنس والجن معا إنما تحدتهم، ومازالت تتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن نظماً وبياناً، وهذا هو الوجه الذي أعجز العرب سابقاً ولاحقاً، وهم إذ عجزوا عن الإتيان بمثله فقد انتفى أن يكون القرآن من كلامهم أو من كلام محمد لأنه واحد منهم علاوة على أنه ثبت لنا أحاديث شريفة قالها الرسول ﷺ والقرآن ينزل عليه، وبالمقارنة بين الكلامين نجد البون شاسعاً والفرق بعيداً، بعد الفارق بين الخالق والمخلوق.

ويجدر بنا أن ننقل إليك كلمة الجاحظ في تجليه هذه الحقيقة إذ يقول: (بعث الله محمداً ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله، وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة فلما قطع العذر وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة، حمله على حضهم بالسيف فنصب لهم الحرب ونصبوا له، وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحاً ومساء إلى أن يعارضوه - إن كان كاذباً بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحدياً لهم بها، وتقريعاً لعجزهم عنها، تكشف عن نقصهم ما كان مستوراً، وظهر منه ما كان خفياً).

«فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة، قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك مالا يمكننا، قال: فهاتوها مفتريات!! فلم يرُم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر ... ولو تكلفه (أي لو استطاعه) لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده، ويحامي عليه، ويكايد فيه، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض)[2].

(فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم واستقامة لغتهم، وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم، وكثرة من هجاه منهم، وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته،

(١) سورة يونس: آية ٣٨.
(٢) الإتقان في علوم القرآن ٤/٥

لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره، وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه، من بذل النفوس. والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال. وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات، ولهم القصيد العجيب، والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة، والقصار الموجزة ولهم الأسجاع، والمزدوج، واللفظ المنثور، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز أدناهم، فمحال -أكرمك الله- أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر، وهم أشد الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة !! وكما أنه محال أن يطيقوه ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة، فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل إليه، وهم يبذلون أكثر منه)[1].

## الإعجاز العلمي

لقد وجد المسلمون هذا اللون المعاصر من الوان التفسير تأكيداً لإعجاز القرآن أو باباً جديداً من أبوابه وتأكيداً على عدم معارضة القرآن والاسلام للعلم، حتى قام بعض المفسرين من (أمثال طنطاوي جوهري) تفسير آيات الطبيعة في القرآن بحقائق العلم التجريبي ونظرياته وذهب إلى حشو تفسيره الجواهر - باجراء المطابقة بين كشوف الغرب العلمية وآيات القرآن الكريم وتعسف كثيراً في إجراء هذه المطابقة في معظم الاحيان، ووصف كتابه «بهذا الكتاب في التفسير وامثاله سيستيقظ المسلمون سريعاً، سيجئ جيل لم تشهد الأرض مثله... أيها المسلمون هذا هو علم التوحيد في الحقل والجبل والزرع والشجر والثمر والشمس والقمر. لا في الكتب المصنفة المشهورة، هي والله مبعدة عن حكمة الله، ومبعدة عن معرفة آياته»[2].

لقد أبعد الشيخ طنطاوي جوهري رحمه الله - النجعه، ولم يتحقق له ما أمل أو أراد !

(١) الإتقان في علوم القرآن ٤/٥

(٢) تفسير الجواهر ١/٦٦ طبع القاهرة سنة ١٣٥٢



لقد أصبح التفسير العلمي والإعجاز العلمي قرينين أو شيئاً واحداً في عرف كثير من الدارسين والباحثين، ورأوا فيه ميداناً ملائماً للدعوة إلى الإسلام، واقامة الدليل على أن القرآن وحي يوحى، وانه تنزيل من حكيم حميد، في الوقت الذي ضعفت سليقة العرب اللغوية، وأضحوا غير قادرين على «تذوق الإعجاز البياني للقرآن الكريم» ... في الوقت الذي عد فيه هذا «الإعجاز الجديد» قادراً على مخاطبة العرب وغير العرب، كما يقوى على إدراكه المسلمون وغير المسلمين، بل إن غير المسلمين من الأوربيين المكتشفين للسنن، وأصحاب التقدم العلمي، يأتون في مقدمة من يعقل عن القرآن هذا الإعجاز، أو بعبارة أدق: هذا السبق العلمي الباهر الذي جاء به القرآن الكريم قبل مئات السنين.

والواقع - والقول الحق - ان الإعجاز الحقيقي في هذا الجانب أعني جانب الحقائق العلمية عن الكون والانسان التي اشار إليها القرآن الكريم [يكمن في طريقة القرآن في التعبير عن هذه الحقائق لا فيما سميناه تفسيراً علمياً قد نخطئ فيه أو نصيب ! لقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحقائق على نحو يفهم خلال العصور ! بمعنى أن اسلوب القرآن ونظمه وبيانه - الذي جعلناه مناط الإعجاز فيما سبق - اتسع للتعبير عن هذه الحقائق العلمية على نحو لا يعجز عن خطاب الانسان في أي عصر، ولا يحمله كذلك أكثر مما يطيق، هذا هو وجه الإعجاز الحقيقي في هذه المسألة.

وغني عن البيان انه ليس في مقدور أحد من الثقلين ان يكتب بهذه الطريقة، أو يجئ بمثل ما جاء به القرآن، وهذا هو السبب في ان القرآن الكريم فهم وفسر خلال هذه العصور.

أما انفراد العصر الحديث - عصر الكشوف العلمية - بهذا اللون من الوان الفهم، او ألوان الشرح والتفسير، فيعود إلى أن ادراك المدلول (العلمي) أو الحقيقي للاشارات القرآنية المتعلقة بالطبيعة والانسان، يتوقف على التجربة والعمل الانساني وعلى تطبيق المنهج القرآني في التعامل مع هذه الاشارات والظواهر او على الامتثال للامر القرآني بالنظر والملاحظة والتجربة، وقد قصر المسلمون في الامتثال للمنهج العلمي الذي تضمنه القرآن الكريم ودعا إليه، بوصفه الطريق الصحيح للاكتشاف.

هذا والحديث طويل ودقيق في هذا اللون من الوان التفسير وبيان الإعجاز ولكن لن

ننهي الحديث قبل أن نلقي الضوء - بايجاز شديد - على شروط التفسير العلمي :

١ - أقول أول هذه الشروط أن لا يفسر القرآن إلا باليقينيات العلمية، أو بالحقائق الثابتة التي ارتقت من درجة الفروض والنظريات العلمية الى مقام اليقينيات أو «الفعل الواقع القائم» بحسب عبارة موريس بوكاي، والذي لا يمكن أن يتطرق إليه التغيير والتبديل [١].

مثال تطبيقي على ما سبق :

قال تعالى ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾[٢].

وقال تعالى ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾[٣].

ان العلم الحديث يجعلنا ندرك بسهولة كيف يتداخل كل من الليل والنهار في حركة الأرض حول محورها وحول الشمس الثابتة نسبياً، وربط بهذا تعدد المشارق والمغارب[٤].

قال تعالى ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[٥].

فلا خلاف على جواز تفسير هذه الآيات بما يدل على كروية الأرض والتي تمثل حقيقة علمية واقعة ... الخ.

٢ - ان حقائق العلم لا تفسر بها المعجزات والامور الخارقة للعادة التي نصت عليها الآيات الكريمة نظراً لافتراق «موضوع» هذه الآيات عن آيات الكون والطبيعة واطوار الخلق، وسائر الآيات التي يمكن الانتفاع بحقائق العلم وثوابته في تفسيرها وشرح معانيها، بل نقول أبعد من ذلك : ان الآيات القرآنية التي تحدثت عن المعجزات والخوارق لا يمكن اقحامها من باب العلم التجريبي أصلاً، لأنها إنما ثبتت بمقدار مخالفة السنن والقوانين، فكيف يتأتى تفسيرها من خلال هذه السنن والقوانين.

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة تأليف موريس بوكاي ص ١٨٤ دار المعارف ١٩٧٧م.
(٢) سورة لقمان : الآية ٢٩.
(٣) سورة الزمر : الآية ٥
(٤) دراسة الكتب المقدسة ص ١٤٥.
(٥) سورة المعارج : الآية ٤٠.



فمثلاً معجزة حمل مريم بعيسى عليه السلام ليس لها تفسير علمي بناء على سنن الحمل والولادة، ولكن هناك من تعسف في تفسير هذه المعجزة وراح يفسرها تفسيراً علمياً حسب زعمه، فقال : ان مريم خنثى، والخنثى له مبيض في جهة، وخصية في الجهة الثانية !![١].

ولا يدري القارئ مع هذا التفسير العجيب كيف تكون مريم وابنها آية للعالمين ؟ وما معنى قوله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾[٢] الآيات الدالة على المعجزة و«الاستثناء» في حمله وولادته.

ومثل هذا، أو قريب منه من تحدث عن الكهرباء، وكيف يصعق التيار الكهربائي الاحياء ... في سياق شرحه لقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ... ﴾[٣].

ويضيف طنطاوي جوهري حديثاً عن معجزة موسى التي نصت عليها الآية الكريمة ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾[٤].

قال : ان الله اختار الحجر ليضربه موسى بعصاه دون غيره ليلفت العقول إلى بدائع خلقه ومعجزاته في الكون، فالحرارة تحول الماء بخاراً، والبرد يجمده وهو بين الصخور فيصدعها.

ثم يمضي في تفسيره للآية ١٢ من سورة سبأ ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر، ومن الجن من يعمل بين يديه ﴾.

يقول طنطاوي في تفسيرها ان سليمان - عليه السلام - كان له سفر هوائي منظم !! ومن ذلك يتضح ان اختراع الطائرات في هذا العصر قد سبق إليه العصر

(١) الدكتور محمد توفيق صدقي : دروس في سنن الكائنات ١ / ١٥ ط١ في مجلة المنار بمصر سنة ١٣٣٣ هـ.
(٢) سورة آل عمران : الآية ٥٩.
(٣) سورة الاعراف من الآية ١٤٣.
(٤) سورة البقرة : الآية ٦٠.

السليماني، وهذا من معجزات القرآن [1].

ومن العجيب حقاً هذا القلب للحقائق تحت عنوان التفسير العلمي، أو في سبيل حض المسلمين على الأخذ بأسباب التقدم العلمي.

٣ – ومن أصول التفسير المُسَلَّمه انه لا يجوز تفسير القرآن باصطلاح حادث بعد نزوله؛ لاننا لو فعلنا ذلك لعدنا على معاني القرآن بالتحوير والتبديل، أو بالابطال والالغاء؛ فالملائكة المسوَّمون الذين قاتلوا مع النبي ﷺ يوم بدر لا صلة لهم «بالجنود الذين يهبطون بواسطة الطائرات في الحروب الحالية» والغواصات التي عمَّ استعمالها في جميع البحار لم تكن مستعمله في عصر سليمان عليه السلام، على خلاف [2] من استنتج ذلك من قوله تعالى ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴾ [3] ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ [4]. الآية﴾.

فلا تكفي كلمة غواص أو «يغوصون» في سياق الحديث عن الشياطين !! للزعم بان الغواصات التي عرفتها الحروب الحديثة كانت معروفة في عصر سليمان! وكأن عالم الشياطين – بوصفه من عالم الغيب – لا معنى له أو لا وجود له في القرآن! وكأن عصر سليمان – على عكس ما يدل عليه التاريخ – عرف هذا التقدم العلمي والسبق في ميدان الاختراع.

وأخيراً تحسن الإشارة إلى أن من أبرز الباحثين المعاصرين الذين يسارعون إلى أخذ الآية القرآنية شاهداً على صحة «نظرية» من النظريات العلمية، أو يحاولون تفسير الآية بنظرية من النظريات: عبد الرزاق نوفل، الذي كتب كثيراً من الأعاجيب. ومصطفى محمود في كتابه السقيم: «القرآن محاولة لفهم عصري» والدكتور جمال الدين الفندي في كتابه «الله والكون» الذي رد فيه كثيراً من الأحاديث! ووقع في كثير من المجاز وضروب التأويل. والله تعالى أعلم [5].

(١) تفسير الجواهر ١ / ٧٠
(٢) علي فكري «القرآن ينبوع العلوم والفرقان» ١ / ٥١ ط ١ المطبعة السلفية.
(٣) سورة ص: الآية ٣٧.
(٤) سورة الانبياء: الآية ٨٢.
(٥) هذا البحث الإعجاز العلمي من كتاب علوم القرآن للاستاذ الكتور عدنان زرزور ونقلناه بتصرف يسير.



# وجوه فاسدة في إعجاز القرآن

## (القول بالصرفة)

بعد أن بينا وجه الإعجاز الذي تحدى الله به البشر نذكر وجهاً من الوجوه الفاسدة، بل هو من أفسد الأقوال، وهو القول بالصرفة، والمنسوب إلى أبي إسحاق النظام من المعتزلة والإمام المرتضى من الشيعة ثم إلى أبي إسحاق الإسفرائيني من أهل السنة، وخلاصة هذا القول أن وجه الإعجاز في القرآن هو الصرفة أي أن الله صرف قلوب العرب عن معارضة القرآن فزهدهم في معارضته فلم تتعلق إرادتهم ولم تنبعث إليها عزائمهم، فكسلوا وقعدوا رغم توافر البواعث والدواعي.

بل زعموا أن عارضاً مفاجئاً عطل مواهبهم البيانية وعاق قدرتهم البلاغية.

لم يظهر هذا القول إلاَّ في القرن الثالث الهجري وكان النظام هو أول القائلين به، ولعله استمد مقولته من الفلسفة الهندية عند البرهمية في كتابهم (الفيدا) إذ يعتقدون أن ما ورد فيه لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بمثله لأن براهما صرفهم عن أن يأتوا بمثله، ولكن خاصتهم يقولون: إن في مقدرتهم أن يأتوا بمثله ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراماً لها.

هذا القول ظاهر العوار لكل ذي عين، لذا وجدنا الأمة بقضها وقضيضها، بفرقها ومذاهبها، مجمعة على خلاف هذا، فالمعتزلة وعلى رأسهم الزمخشري قد أبطل مثل هذا القول، والطبرسي الشيعي قد فنده وأهل السنة كذلك، فهو مذهب باطل وإن قال به آحاد من المعتزلة والشيعة وأهل السنة وقدجوبه بالرفض، ذلك أن تحدِّي القرآن وإثبات العجز للناس ليس مقتصراً على عهد النبوة فقط بل هذا التحدي قائم، وهذا العجز من البشر ثابت إلى قيام الساعة. فمن قال بالصرفة فليحاول هو، وهل يُحسّ بشيء من الصرف أو السلب في نفسه؟

إن استعظام العرب لفصاحة القرآن وبلاغته وتعجبهم من ذلك لهو دليل على بطلان الصرفة، فلو كانوا مصروفين عن المعارضة بنوع من الصرف لكان تعجبهم للصرف لا للبيان المعجز. ولو كان هناك سلب لعلومهم لكان الفرق بين كلامهم بعد التحدي

وكلامهم قبله كالفرق بين كلامهم بعد التحدّي وبين القرآن، ولما لم يكن كذلك بطل القول بالصرفة [1].

والعرب لم تفقد عقولها بعد بالتحدّي، فإن سلب العلوم ونسيانها في هذه المدة اليسيرة دليل على زوال العقل، ومعلوم بقاء العقول بعد التحدّي كما كانت، بل مَنْ تغلّب على نزغات الشيطان وترك اتباع الهوى في نفسه وترفع عن الحسد والبغضاء وآمن بدعوة الحق ازداد عقله رجاحة وصفاء.

وما أحسن ما قاله السيوطي في إبطال القول بالصرفة حيث يقول: «وهذا فاسد بدليل قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [2].

فإنها تدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره»[3].

والاجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة إعجاز، بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة على الاتيان بمثله. ثم قال السيوطي «ولو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون بالمنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه» [4].

ومن الوجوه الفاسدة تلك الأقوال المستحدثة والمبالغة المفرطة في إعجاز القرآن العلمي في كل كلمة وحرف ورد فيه، فجعلوا من القرآن كتاباً في التشريح وكتاباً في الفضاء وكتاباً في كل فن.

(١) الفوائد المشوق لابن القيم، ص ٢٥٢ ومباحث في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص ٦٠.
(٢) سورة الإسراء: آية ٨٨.
(٣) الاتقان للسيوطي ٢/ ١١٨
(٤) المرجع السابق..



## المبحث الخامس

# القصة في القرآن

لقد تناول القرآن - موضوع القصة - لا كما يتناوله القصاص والأدباء بل نهج فيه نهجاً مختلفاً ليحقق الأهداف والمرامي التي يريدها، [redacted]

ذكر القرآن لنا بعض أهدافه ومراميه والحكمة التي يقصدها: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [1].

لذا جاءت القصة القرآنية متناثرة في سور متعددة، لتحقق الغرض الذي سيقت من أجله في كل سورة وردت فيها إلاّ ما ورد استثناء في قصة يوسف عليه السلام التي وردت كاملة متكاملة غير منقوصة في سورة سميت باسمه عليه السلام، أما بقية قصص الأنبياء فقد وردت مشتتة ومجزأة في مواضع مختلفة من السور لتحقق العبرة والعظة التي سيقت من أجلها في تلك المواضع، وفي ذلك حكمة ربانية قد نعلمها أو لا نعلمها وقصور علمنا البشري عن إدراك ذلك يجعلنا في حيرة بل ليقول الذين في قلوبهم مرض ماذا أراد الله بهذا مثلاً من هذا السرد القصصي، وهذا التكرار الذي لا داعي له، إذ ما معنى أن يقول عن قصة إبراهيم في سورة الذاريات مثلاً: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إلى قوله .... فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ [2]، ويقول في سورة أخرى: ﴿أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [3] وهلم جرا من الآيات التي تقص طرفاً من القصة وقد يأتي في موضع أخر من سورة أخرى بمثل ما وزد في الأولى.

(١) سورة هود: آية ١٢٠.
(٢) سورة الذاريات: الآيات: ٢٤ - ٢٦.
(٣) سورة هود: الآية ٦٩.

وقد راح بعض المفسرين في جمع الأشتات في المواضع المتعددة وكون منها جميعاً قصة، وكثيراً ما يدخل إليها تلك الإسرائيليات، ليكوّن منها قصة ومسلسلاً عجيباً، وقد تجد فيه العجب العجاب الذي تطير منه الألباب، وما علموا أن هذا القصص ليس للتسلية والتاريخ إنما هو للعبر والاتعاظ وللتنبيه على سنن الله في الاجتماع البشري وبيان مآل الأقوام حين تحيد عن منهاج الله وتسلك سبيل الظلم والضلال.

وما علموا أن الذي أضافوه من الغث والسمين لا يضر ولا ينفع وكأنهم يرون نوعاً من الاستدراك على القرآن وإكمالاً للنقص في القصة، وفي هذا وذاك قصور في النظر في محتوى القصص القرآني لأن الله سبحانه وتعالى حين قص علينا أحسن القصص بالصورة التي وردت في القرآن قد أستوفى الفائدة المرجوة من القصة على الصورة التي وردت من غير زيادة ولا نقص، ولو كان شيئاً يهمنا ويفيدنا في زيادة أكثر مما هو مذكور لقصه لنا، فمثلاً حين قص علينا قصة أهل الكهف لم يذكر لنا أسماءهم ولا وصف حالهم في نومهم ويقظتهم، ولا أسم الملك الظالم في زمنهم، ولا اسم كلبهم، ولا مكان كهفهم الذي نزلوا فيه، وإنه وإن كانت النفوس تتشوق لمثل ذلك حسب غريزة حب الاستطلاع إلاّ أن هدف ومراد القصص لم يُسَقْ لتحقيق شيء من ذلك، ولو كان ذكر ذلك مقصوداً لذكره الله لنا فإن الله ينزه عن إهمال ذكر شيء ينفعنا علمه، بل هو كما قال المفسرون: (هو شيء لا ينفعنا ذكره ولا يضرنا جهله، ولو كان ينفعنا أو يضرنا لذكره الله لنا) [1].

وإنما كان المفسرون لا يرون كبير بأس في التوسع في ذكر هذه القصص، لأنها لا تتعلق بعقائد أو أحكام، ولكنها من قبيل الاعتبار والعظة، وغرس فضائل الأعمال. قال الإمام أحمد بن حنبل: (إذا روينا في الحلال والحرام شددنا، وإذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا) [2]، فبالأحرى القصص.

ومن توسع في إيراد القصص في التفسير أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المتوفي سنة سبع وعشرين وأربعمائة صاحب «التفسير الكبير»، وكذلك

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري ٧ / ١٣٥.
(٢) القول المسدد في الذب عن المسند للامام احمد لابن حجر العسقلاني ص ١١.



عبد الله بن عمرو الذي أصاب جملة من كتب أهل الكتاب، وأدمن النظر فيها، ورأى فيها عجائب، ووردت عنه أشياء تتعلق بالقصص وأخبار الفتن والآخرة [1].

ثم ولع بعض المفسرين المتأخرين بالغرائب والتفصيلات في القصص، لا طائل تحتها، فأوقعهم في كثير من المحاذير، حتى صعب على بعض الناس التفريق بين فهم هؤلاء المفسرين للقرآن وقصصه وبين النص القرآني نفسه، وأوضح ما كان ذلك في القصص الاسرائيلي حول الانبياء وحياتهم.

ولعل في [redacted] المتأخرين

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) تذكرة الحفاظ ١ / ٤١.

## ❑ المبحث السادس ❑
## ترجمـــة القـــرآن

يقودنا الحديث عن لغة القرآن وإعجازه إلى حديث عن ترجمة القرآن بلغة غير لغته، إذ مفهوم الترجمة كما يقول لسان العرب هي نقل الكلام بلغة غير لغته، فتَرْجَمَهُ وتَرْجَم عنه إذا فسر كلامه بلسان آخر، كما أن التُرجمان - بالضم والفتح - هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى أخرى.

ويجدر بنا أن ننوه إلى أنَّ الترجمة ضرورة لنا من أجل إبلاغ ديننا الذي لا يتأتى بدونها، وقد مارسها أجدادنا الأوائل بحال من الأحوال، وإن قلّ اعتمادهم عليها في صدر الإسلام الأول نظراً لإقبال الشعوب غير العربية على تعلُّم اللغة العربية التي هي عماد دينهم، فجعل القرآن منهم لساناً عربياً أنساهم في كثير من الأحيان لغاتهم الأصلية بل نصَّب الأعاجم أنفسهم لخدمة العربية، فكان منهم من وضع القواعد والأسس للغة القرآن، وماأفضل ما قاله الإمام ابن حجر: «العربي هو من تكلم بالعربية وإن كان من العجم والأعجمي هو من يتكلم غير العربية وإن كان من العرب».

أقول: إن الأهمية للترجمة قد بدأت تأخذ طريقها وأحرى بنا أن نعتني بها، لأن البعثات التبشيرية والاستشراقية أصبحت المصدر الوحيد للمعرفة الإسلامية لأولئك الذين يُسلْمون من غير العرب أو لأولئك الذين يرغبون في معرفة الإسلام.

بعد هذه اللمحة نتحدث عن حكم الترجمة للقرآن، ولا يفوتنا أن ننبه إلى نوعين من الترجمة:

① ترجمة حرفية و② ترجمة تفسيرية. ولا خفاء أن الترجمة الحرفية مستحيلة، إذ إبدال حرف أو كلمة منه يُخلُّ بإعجازه الذي هو سمته، والتي بدونها لا يكون قرآناً، فكيف بإبدال لغة غير لغته، وعلاوة على ذلك [redacted]



وهاك مثالاً يوضح المقصود والمراد من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾(١).

فلو ترجمتها ترجمة حرفية ما بلغت المراد منها، لأن المراد: النهي عن البخل والإسراف، ولست ببالغه من ظاهر الألفاظ أي من الترجمة الحرفية، وإن أردت المعنى والتفسير وترجمته ونقله إلى لغة أخرى لم يستعص عليك ذلك، إذا فهمت وكان فهمك صواباً في تعيين المعنى، ولكن عندها لن يكون كلامك قرآناً ولو كان بلغة القرآن نفسها فأنى يكون للغة غيرها أن نسميها قرآناً؟

لذا قرر العلماء - قديماً وحديثاً - أن الترجمة الحرفية مستحيلة [redacted] ولا أن يسند شيء منها إليه تعالى، فيقال: قال الله: كذا، فإسنادها إليه [redacted]

أما ترجمة معاني القرآن أو الترجمة التفسيرية فلا ريب بجوازها بل قُلْ وجوبها إذا كان لا يتم التبليغ للقرآن إلاَّ بها، وما لا يتم الواجب إلاَّ به فهو واجب.

يقول شيخ زاده في حاشيته على تفسير البيضاوي وذلك بصدد تفسيره للآية:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا... ﴾(٢).

وما أنزل إليه عليه الصلاة والسلام بلسان العرب خاصة، فكيف يخرج به جميع الناس من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان فأجاب عنه بقوله: وما أرسلنا من رسول إلى الأمم التي اختلفت ألسنتهم إلّا بلغة قومه الذين هو منهم، إذ لا حاجة إلى أن ينزل إلى كل قوم كتاب ملتبس بلغة أولئك القوم، لأن ذلك ينوب ويكفي عن التطويل اللازم من ذلك، فإذا أنزل بلسان واحد من الأقوام كان أولى الألسنة لسان قوم الرسول، لأن قومه أقرب الناس إليه، فكان حقهم عليه أقدم، وكان الأولى أن يدعوهم إلى الحق أولاً. وينذرهم عن المخالفة والعصيان، حتى إذا فهموا منه يبينون ما أرسل به إليهم ويترجمون لغيرهم مافهموه، فتنتشر دعوته بذلك إلى أطراف العالم(٣).

(١) سورة الإسراء: آية ٢٩.
(٢) سورة الأعراف: آية ١٥٨.
(٣) ١٢٤/٣.

## حكم قراءة الترجمات القرآنية في الصلاة :

نقول : إن كلمة المجتهدين سواء في عدم جواز الصلاة بالترجمة، إلاّ ماروي عن الإمام أبي حنيفة كما سنرى.

أما الشافعية فقالوا : (لا تجوز قراءة القرآن بغير لسان العرب، سواء أمكنته العربية أم عجز عنها).

أما الحنابلة فيقولون : ( ولا تجزئه القراءة بغير العربية ولا إبدال لفظ عربي، سواء أحسن القراءة بالعربية أم لم يحسن ، ويلزمه التعلم). وروي مثل ذلك عن المالكية. قال ابو بكر بن العربي – هو من فقهاء المالكيه – في تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ [1] ، قال علماؤنا : وبهذا يبطل قول أبي حنيفة بان ترجمة القرآن بابدال اللغة العربية منه بالفارسية جائز لأن الله تعالى قال ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ نفى ان يكون للعجمة إليه طريق – فكيف يصرف إلى ما نفى الله عنه ؟.

أما ابن حزم فيحكم بفسق من قرأ غير العربية في الصلاة.

يقول في محلاه : (من قرأ أم القرآن أو شيئاً منها أو شيئاً من القرآن في صلاته مترجما بغير العربية أو بألفاظ غير الألفاظ التي أنزل الله تعالى، عامداً لذلك، أو قدم كلمة أو أخرها، عامداً لذلك، بطلت صلاته، وهو فاسق، لأن الله تعالى قال : ﴿ **قرآناً عربياً** ﴾ [2] ، وغير العربي ليس عربياً، وإحالة عربية القرآن تحريف لكلام الله، وقد ذم الله تعالى من فعلوا ذلك فقال :

﴿ . . . يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ . . . ﴾ [3].

أما الحنفية فقد خالفوا جمهور الفقهاء، فقد روي عن أبي حنيفة أنه أجاز قراءة الترجمة في الصلاة سواء أكان عاجزاً عن العربية أو قادراً عليها، وروي عن الصاحبين

(١) سورة فصلت : آية ٤٤.
(٢) سورة يوسف : آية ٢ .
(٣) سورة المائدة : آية ١٣.



**الإمام أبي يوسف ومحمد جواز ذلك للعاجز عن العربية فقط.**

يقول الشيخ محمد أبو زهرة :

(إن أبا حنيفة الذي عاش أكثر من خمسين سنة في العصر الأموي، قد أدرك الفرس وهم يدخلون في دين الله أفواجاً أفواجاً، وهم يلوون ألسنتهم بالعربية، لا يحسنون النطق بها ولا تستطيع ألسنتهم إخراج الحروف العربية من مخارجها، وإن عرفوا العربية في الجملة، واستطاعوا التفاهم بها بشكل عام، ثم رآهم ينطقون بآي القرآن نطقاً غير حسن فرخص فيها واعتبرها ذكراً لا قرآناً.

ويبدو أنه رجع عن هذا القول خوفاً من أن يظن أن الترجمة قرآن يقوم مقام الأصل العربي. فأجازها للعاجز فقط. واعتبرها ذكراً لا قرآناً كذلك. كما اعتبرها صاحباه على الوضع نفسه)[1].

(١) أبو حنيفة للشيخ محمد أبو زهرة وكشف الأسرار ١ / ٢٥ . أما أقوال المذاهب الأخرى فيرجع فيها إلى المجموع في فقه الشافعية وإلى المغني لابن قدامه، وإلى كتاب المحلى لابن حزم

الفصل الثـــاني

# الـــوحـــي

المبحـث الأول : تعريف الوحي لغة وشرعاً .

المبحـث الثـاني : دليـــل الوحـــي .

المبحـث الثالث : مراتب الوحـــي .



## المبحـث الأول

## تعريف الوحي لغة وشرعاً

١ - المعنى اللغوي :

الوحي مصدر بمعنى الإشارة السريعة الخفية، يقال أوحيت إلى فلان إذا كلمته بسرعة وخفية، وأوحى وأومأ إلى فلان بمعنى أشار، وأوحى الله إليه : ألهمه [١]، وقد ورد في القرآن الكريم استعمال هذه المعاني، من ذلك :

(أ) الإلهام الغريزي للحيوان كقوله تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [٢].

(ب) [redacted] تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [٣].

وفي السورة نفسها : ﴿...... وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ...﴾ [٤].

(جـ) [redacted]

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [٥].

فالوحي هنا لا يجوز أن يكون المراد به الكلام لأن الكلام كان ممتنعاً عليه لقوله تعالى في الآية التي قبلها ﴿... قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ [٦].

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٦ / ٩٣ ، مادة وحي. فالواو والحاء والحرف المعتل : أصل يدل على القاء علم إلى غيرك ، فالوحي الاشارة ، والوحي الكتاب والرسالة ، وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان.

(٢) سورة النحل : آية ٦٨ ..

(٣) سورة الأنعام : آية ١١٢ .

(٤) سورة الأنعام : آية ١٢١.

(٥) سورة مريم : آية ١١.

(٦) سورة مريم : آية ١٠ .

قال الرازي : والأشبه بالآية هو الإشارة وهو أن يعرفهم ذلك إما بالإشارة أو برمز مخصوص لقوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾(١).

والرمز لا يكون كتابة للكلام (٢).

## ٢ – المعنى الشرعي :

عرفه العلماء بتعريفات كثيرة منهم من أسهب ، فقال : ( الوحي هو أن يُعْلِمَ الله من اصطفاه من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر ) .

وعرفه الشيخ محمد عبده [ بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه على اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو غير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ، ويفرق بينه وبين الإلهام أن الإلهام وجدان تستيقنه النفس فتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور ] .

ومنهم الموجز في تعريفه بقوله : ( كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه ) .

كل هذه التعريفات لم تخل من مقال ونقد . وأفضل التعريفات وأحسنها ما قاله ابن حجر في فتح الباري « الوحي هو الاعلام بالشرع » أو [ إعلام الله لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه ] (٣) أو ما روي عن الزهري حين سئل عن الوحي فقال :

( الوحي ما يوحي الله إلى نبي من الأنبياء فيثبته في قلبه فيتكلم به ويكتبه وهو كلام الله )(٤).

---

(١) سورة آل عمران : آية ٤١ .

(٢) أنظر التفسير الكبير ، ٢١ / ١٩٠ .

(٣) فتح الباري ١ / ٩ .

(٤) انظر الإتقان في علوم القرآن مبحث الوحي ١ / ١٤ .



وبعـــد :

فلا يسعنا بعد أن عرفنا الوحي بمعنييه اللغوي والشرعي إلا أن نسأل ، هل وحي الله تعالى إلى أم موسى ينتسب إلى الحقيقة اللغوية أو إلى الحقيقة الشرعية ؟ .

ذهب قتاده إلى أن الوحي إلى أم موسى كان بالإلهام الفطري ، وممن أيد ذلك الراغب الأصفهاني وقد نحا نحوه الحافظ ابن كثير والإمام البيضاوي وغيرهم كما سار على هذا النهج من بعد طائفة من الكاتبين في علوم القرآن من أهل هذا العصر ، منهم الدكتور صبحي الصالح رحمه الله والدكتور عدنان زرزور والدكتور القصبي زلط حين قال ثلاثتهم إنَّ الوحي إلى أم موسى هو الإلهام الفطري وهو إلى النحل الإلهام الغريزي ، ثم قلدهم كثير . . .

وذهب آخرون – قدامى ومحدثون – منهم الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة إلى أن الوحي هنا بمعناه الشرعي وناقش ورد على القائلين بأن الوحي هنا بمعناه اللغوي هو الإلهام الفطري ، فقال :

إن هذا الرأي غير صحيح ، والا فمن أين لفطرة كائن من كان اعتقاد جازم بأن فلاناً سيكون من المرسلين ، حتى يتصور ارتكاز مثل هذا الاعتقاد في فطرة أم موسى بالنسبة لولدها عليه السلام حسبما نطقت به الآية الكريمة من سورة القصص ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾(١) .

هكذا وعلى هذا النحو المؤكد بإن واسمية الجملة ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ هذه واحدة .

وثانية لا تدنو عن أختها دلالة وهي تعبيره تعالى عن هاتين البشارتين بالوعد في قوله الكريم ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾(٢) .

---

(١) سورة القصص : آية ٧ .

(٢) سورة القصص : آية ١٣ .

فمن أين يصلح أن يُقال لمجرد الإلهام أو حتى لرؤيا منام رآها غير نبي كأم موسى، مهما تكن درجة رائيها من الصلاح والورع، من أين يصلح أن يقال لشيء من هذا أو ذاك [وعد].

فمن ثَمَّ استظهر كل من أبي حيان والألوسي [1] أن يكون الوحي إلى أم موسى عليه السلام هو من طريق ملك أرسله الله إليها.

ولعل الذي حمل هؤلاء وأولئك من قدامى ومحدثين القائلين بدعوى الإلهام الفطري في حسباننا ماهو إلا خشيتهم أن يظن بأم موسى النبوة، مع إجماع المسلمين وغيرهم على عدم نبوتها بل مع إجماع المسلمين على أن من شرط النبوة الذكورة، إنطلاقا من نحو قوله تعالى: ﴿... وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [2].

ولكن من أين يقتضي إرسال الملك إلى أحد ضرورة نبوته، أفلا يرون إلى إرساله تعالى جبريل إلى مريم حين تمثل لها بشراً سوياً، وكلمها بما ذكر من قصتها في كتابه الكريم.

لذا قال بعض المفسرين إن الله تعالى أرسل إلى أم موسى ملكاً ولا يستبعد أيضاً أن يكون هذا الوحي إليها كان عن طريق نبي في زمانها لم يقص علينا القرآن قصته، وأي ذلك قد كان مما الله أعلم به، فليس لما قاله أهل دعوى الإلهام، ومثلهم أهل دعوى رؤيا المنام وجه ألبتة فتنبه [3].

(١) انظر تفسير البحر المحيط جـ٧ ص ١٠٥، وروح المعاني للألوسي ص ٤٥.
(٢) سورة النحل: آية ٤٣.
(٣) منة المنان في علوم القرآن جـ٢، ص ١٥١ ١٥٣.



## المبحث الثاني
## دليل الوحي

إن الدليل على أن حقيقة الوحي شرعي لا عقلي، لأنّه من الأمور الغيبية التي لا يقع عليها الحس، والذين يدللون على الوحي بالأدلة العقلية - ولو بحسن نية - إنما هم واهمون ومخطئون، فإن للعقل دائرته التي لا يتعداها فهو يسلمنا إلى حقيقة وجود الخالق ويرشدنا إليه فإذا ما أسلمنا إلى هذه الحقيقة فقد هدانا إلى الإيمان الذي من مقتضياته التسليم بما أخبرنا من أدلة قطعية قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴾ [1]. وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾ [2].

وقال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [3].

ويكفي دلالة على حقيقة الوحي إعجاز القرآن الذي أثبت عقلاً أنه منزل من الله على رسوله، وإن من آياته المعجزة ما دلنا على الوحي ومصدره، والنازل به والمنزل عليه، والكيفية والحالة التي نزل بها. أما التدليل على حقيقة الوحي بالأدلة العلمية لتقريبه للعقل فهو مجاف للصواب.

لقد ذهب بعض العلماء يفتشون لنا عن المقررات العلمية لإثبات القضايا الغيبية، فوجدوا الدليل الأول في التنويم المغناطيسي، فقالوا: إن الذي كشف هذا هو الدكتور مسمر العالم الألماني في القرن الثامن عشر، وجاهد هو وأتباعه مدى قرن كامل من الزمان في سبيل إثباته وحمل العلماء على الاعتراف به، وقد نجحوا في ذلك، فاعترف العلماء به علمياً بعد أن أختبروا به الآلاف المؤلفة من الخلق، واطمأنوا إلى تجاربه - هكذا يقول صاحب مناهل العرفان - وأخيراً أثبتوا بواسطته مايأتي:

(١) سورة النساء: آية ١٦٣.
(٢) سورة الشورى: آية ٥٢.
(٣) سورة النجم: آيات ٣ - ٤

١ - أن للإنسان عقلاً باطناً أرقى من عقله المعتاد كثيراً[١].

٢ - أن الإنسان النائم في حالة التنويم المغناطيسي يرى ويسمع من بعد شاسع، ويقرأ من وراء حجاب[٢]، ويخبر عما سيحدث مما لا يوجد في عالم الحس أقل علامة لحدوثه[٣]، ثم ذكر ما يزيد عن ثماني حالات وصفها بأنها حقائق علمية لا مجال للشك فيها.

ثم قال: وإننا نضع بين يديك تجربة واحدة من تجارب التنويم المغناطيسي تقرب إليك الوحي كل التقريب وهذه التجربة رأيتها بعيني وسمعتها بأذني بنادي جمعية الشبان المسلمين وعلى مرأى ومسمع جمهور مثقف كبير[٤].

ثم بعد أن ساق التجربة قال: (وبهذه التجربة -أيضاً- يثبت لي أنا من طريق علمي ما قرب إليَّ الوحي علمياً، وما جعلني أعلله تعليلاً علمياً، فالوحي عن طريق المَلَك عبارة عن اتصال المَلَك بالرسول يؤثر به الأول في الثاني، ويتأثر فيه الثاني بالأول، وذلك باستعداد خاص في كليهما)[٥]. هذا الدليل العلمي الأول.

أما الثاني فهو أن العلم الحديث استطاع أن يخترع من العجائب ما نعرفه ونشاهده وننتفع به مما يسمونه التلفون واللاسلكي والميكروفون والراديو، فهل يعقل بعد قيام هذه المخترعات المادية أن يعجز الإله عن أن يوحي إلى عباده ما شاء عن طريق المَلَك أو غير المَلَك؟.

تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

أما الدليل الثالث: فقد قال فيه: استطاع بعض العلماء أيضاً أن يملأ بعض الاسطوانات من الجماد الجامد بأصوات وأنغام على وجه يجعله يحاكيه بدقة وإتقان كما هو (بالفونوغراف).

(١) إن أراد بهذا الكلام إقناع المسلمين بوقوعه، فإن المسلم يكفيه قول الله، وإن أراد أن يدلل لغير المسلم بهذه الواقعة على إمكانية حدوث الوحي في عالم الواقع فإن هذا الكلام يشككه حين يزعم أن العقل الباطني أرقى من عقله الظاهر وبهذا يستطيعون الزعم أن الوحي ظاهرة لا تدل على صدق مدعيها.

(٢) كأنه يرى في حادثة التنويم المغناطيسي حالتين من حالات الوحي حالة الإيحاء وحالة التكليم من وراء الحجاب.

(٣) كلام يشبه الشطحات الصوفية وتخيلات الكهان.

(٤) مناهل العرفان ١/ ٥٩.

(٥) المرجع السابق ١/ ٦١ ٦٢.



وأخيراً فقد استدل بالدليل الرابع ودخل عالم الحيوان فقال:

إننا نشاهد بعض الحيوانات الدنيا تأتي بعجائب بعض الأنظمة والأعمال

وإذا صح هذا في عالم الحيوان فهو يكون أتم من ذلك ما يكون بطريق الوحي ويضرب لك المثل بالحيوان الذي اسمه «أكسيكلوب»[١].

وهكذا استرسل كما بدا له صاحب المناهل في ذكر الدليل تلو الدليل، وأراد أن يدلل على صحة رأيه ووجاهته بقوله: إنه قد رأى هذه التجارب بعينه وسمعها بأذنه، فهذا الأمر محسوس ملموس، ثم إنه قد حصل عليه إجماع من المثقفين وكأنه يرى في اجماع امثال هؤلاء المثقفين كما في إجماع المجتهدين، فالمثقفون علمياً كالمجتهدين فقهياً، فما يقرونه حجة متبعة، كما هو الشأن في الإجماع الشرعي، وهو يزيد أدلته إثباتاً، ان حادثة التنويم المغناطيسي لم تجر في نادٍ أو كازينو ولا في أي مكان لا في أمريكا ولا في أوروبا، بل جرت في مكان له أهميته الدينية وهو نادي جمعية الشبان المسلمين في مصر، وسبحان من جعلها مكاناً للتنويم المغناطيسي وكأن المسلمين بحاجة إلى مثل هذا التنويم، إنهم نائمون منذ أمدٍ بعيد.

وهكذا يرى أن القرار قد خرج من المختبر ليثبت نجاح تجربة الوحي، ومما زاد الطين بلة تدليله على ظاهرة الوحي وتقريب وقوعها إلى الأذهان بالتليفون واللاسلكي، وهذا التدليل بعيد عن نهج هذا الدين، فإن محمداً عليه الصلاة والسلام ما أقنع أهل زمنه إلاَّ بما أرشده الله إليه، أما أن يلتمس لكل حادثة غيبية دليلا حسياً، أو يدلل على وقوعها أو يقربها إلى الذهن بأدلة مادية محسوسة فهذا ما لم يكن، بل حصل العكس فإن أبا بكر الصديق حين حدثه كفار قريش بقصة الإسراء والمعراج، وأرادوا أن يشككوه في هذه القضايا الغيبية لم يفلحوا في ذلك، وأخذوا منه الجواب الشافي النابع من الإيمان الصادق، قال: إن قالها أي محمد ﷺ فقد صدق.

إن الاستدلال بالقضايا العلمية على الحقائق الغيبية هو نهج المدرسة العقلية في

(١) مناهل العرفان ١/ ٦١ ٦٢ هذا القياس أكثر فسادا وأبعد من القياس السابق. فالسابق بين ملك ونبي والإنسان المنوم والمنوم أما هنا فقياس مع حيوان الأكسيكلوب.

التفسير التي أرسى قواعدها الشيخ محمد عبده الذي فسر قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[1].

قال : ليقرب هذه المعاني القرآنية للعقول الأوروبية إن الطير الأبابيل : هي الذباب ، وفسر ( حجارة من سجيل ) بميكروب الجدري، كما فسر ( الجن ) بالميكروب الضار والملائكة بالميكروب النافع. وهذا تفسير غريب وتأويل بعيد ، وقد رد عليه صاحب الظلال بكلام مفيد يحسن الرجوع إليه.

وقد أعجبني الرد على ادعاء إثبات الوحي بالتنويم اذ يقول :

وهل نقف أمام من صعب عليه تصور الوحي ولم يجد بُدّاً من التصديق بالإيحاء الذي يتم أمامه عن طريق التنويم المغناطيسي الذي ربما كان هو موضوعه في مرة من المرات ؟ ...

( وهل نحن بحاجة إلى ضرب الأمثلة والشواهد من عالم البشر المادي والمحسوس على شرح حقيقة الوحي، وبيان إمكانيةوقوعه. إن الأمر هنا ليجلّ عن هذا وذاك، والقرآن الذي نتلوه الآن شاهد صدق على مصدره، كما أن الأدلة على صدق هذه الظاهرة أكثر من أن تحصى )[2].

وقول القائل: (وحاولنا ألا نقرب حقائق الغيب العليا بما يعرفه الناس عن التنويم المغناطيسي وتسجيل الأصوات على الأشرطة وإذاعتها أو نقلها عن طريق الهاتف واللاسلكي ،وظننا أن لا جدوى من هذه الأشياء وأنها ليست هي طريق الإيمان )[3].

* * * * *

( ١ ) سورة الفيل : آيات ٣ - ٥ .
( ٢ ) دراسات قرآنية للدكتور عدنان زرزور ص ٥٩.
( ٣ ) مباحث في علوم القرآن ص ٤٧ - ٤٨ .



## المبحث الثالث

# مراتب الوحي إلى النبي ( ﷺ )
# ومظهر النبي مع تلك المراتب [1]

قال ابن القيم وكل [2] الله تعالى النبي ﷺ من الوحي مراتب عديدة نذكر من هذه المراتب :

أولها : الرؤيا الصادقة [ فكان لايرى الرؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ]، وإستدل السهيلي وغيره على أن الرؤيا من الوحي بقول إبراهيم عليه السلام ﴿ يابني إني أرى في المنام أني أذبحك ﴾ فدل على أن الوحي يأتيهم مناماً كما يأتيهم يقظة، وبرواية ابن إسحاق أن جبريل أتى النبي ﷺ ليلة النبوة وغطه ثلاثاً وقرأ عليه أول سورة أقرأ، ثم أتاه وفعل معه يقظة، وفي الصحيح عن عبيد بن عمير [ رؤيا الأنبياء وحي وقرأ ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ .... ﴾ [3] الآية.

ثانيها : ما كان يلقيه الملك في روعه من غير أن يراه، من ذلك ماروى عن النبي ﷺ [ أن روح القدس نفث في روعي، أن لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فأتقوا الله واجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلابطاعته ][4].

ثالثها : خطاب المَلَك حين كان يتمثل له المَلَكُ رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له.

فقد ثبت أن جبريل كان يأتيه في صورة دَحية الكلبي [5]، كما أخبر النبي ﷺ :

( ١ ) هذا بحث جديد كتبه الاستاذ الدكتور ابراهيم خليفة عن الوحي وقد أوجزناه بتصرف.
( ٢ ) وكل الله له أي اعطاه.
( ٣ ) سورة الصافات : آية ١٠٢.
( ٤ ) رواه ابن ابى الدنيا في كتابه القناعة والحاكم . وصححه من طرق ، ورواه ابن ماجه والطبراني وروح القدس : جبريل . ونفث في روعي : القى في قلبي أو خلدي أو عقلي ، ومعنى أجملوا في الطلب أي اطلبوه بطرق الحلال بلا كد ولا حرص ولا تهافت على الحرام.
( ٥ ) دحية بفتح الدال وكسرها لغتان مشهورتان . وهو بلسان أهل اليمن رئيس الجند ابن خليفة بن فضاله بن فروة الكلبي. شهد المشاهد كلها بعد بدر. وكان دحية جميلا وسيما . وكان إذا قدم لتجارة خرجت الظعن لتراه .تقريب التهذيب ص ٢٠٠

«وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي مايقول». زاد أبو عوانة : «وهو أهونه عليه».

وفي الصحيح روى عمر بن الخطاب نزول جبريل بهيئة رجل، فعنه رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لايرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال : يامحمد أخبرني عن الإسلام. الحديث ... يقول عمر : ثم أنطلق، فلبثت ملياً، ثم قال ﷺ : «يا عمر أتدري من السائل؟ قلت : الله ورسوله أعلم، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» رواه مسلم [1].

رابعها : أن يأتيه جبريل في مثل صلصلة الجرس وكان أشده عليه، وكان ﷺ إذا نزل عليه الوحي سُمع عنده دويّ كدوي النحل، فسماع الدوي بالنسبة للحاضرين كما شبهه به عمر بن الخطاب، والصلصلة بالنسبة إليه كما شبهه به ﷺ بالنسبة إلى مقامه، فقد كان شديداً على نفسه حتى أن جبينه ليتفصّد عَرَقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى ان راحلته لتبرُك به في الأرض [2].

ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه على فخد زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضّها.

الخامسة : أن يرى النبي ﷺ المَلَكَ جبريل في صورته التي خلق عليها، له ستمائة جناح فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين.

إحداهما في الأرض حين سأله أن يريه نفسه فرآه في الأفق الأعلى، قال الحافظ ابن كثير: كانت والنبي بغار حراء أوائل البعثة بعد فترة الوحي [3].

والثانية : عند سدرة المنتهى في ليلة الإسراء والمعراج.

هذه أشهر المراتب، وهناك مراتب أخرى مختلف فيها، لا نطيل الحديث بذكرها مكتفين بما ذكرناه لك من المشهور.

(١) مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والاسلام والإحسان ١ / ٣٦ ح ١.
(٢) رواه البيهقي في الدلائل في حديث عائشة بلفظ « وان كان ليوحى إليه وهو على رأس ناقته فتضرب جرانها من ثقل مايوحى إليه.
(٣) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٦٥.



## الفصل الثالث

# نزول القرآن

تمهيد : نزول القرآن منجماً.

المبحث الأول : أول وآخر مانزل من القرآن

المبحث الثاني : نزوله في مكة والمدينة – المكي والمدني.

المبحث الثالث : نزوله على سبعة أحرف.

المبحث الرابع : القراءات القرآنية.

المبحث الخامس : أسباب النزول.

# تمهيـــــد

## نـــزول القـــرآن

هذا الباب المهم ينبثق عنه فصول ومباحث هي لب علوم القرآن، كنزول القرآن منجما وأول وآخر ما نزل منه، وأسباب النزول، ونزوله بالأحرف والقراءات، ومن قبل نزوله بالوحي ونزوله من السموات، وغيرها، وأبدأ بالحديث عن معنى النزول والمقصود منه.

[redacted] الحكيم في قرآنه الكريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ (١) [redacted]

– رضي الله عنهما – « [redacted] ثم جعل جبريل ينزل على محمد بحراء بجواب كلام العباد وأعمالهم » (٢). والنزول لا يعني أن هناك تغيراً لحق المُنَزل في القدر أو المنزلة، فالعظيم أوالكريم ينزل المكان ولا تتغير منزلته وقدره، لأن التمايز في القدر قد يكون بين اثنين أو شيئين في موضع واحد، وليس بالضرورة أن يكون أحدهما في مكان أعلى من الآخر.

ونقول هذا لننفي أي شبهة يمكن أن تلحق القرآن بعد أن نَزّله العلي القدير على عبده محمد ﷺ ؛ لأن القرآن عَلِيٌّ في الأرض، وعَلِيٌّ في السماء، وعَلِيٌّ أينما كان، ومعنى ذلك أننا لسنا مضطرين لننفي عن القرآن شبهة تغير قدره بنزوله، فنقول إن نزوله إعلام، وليس نزولاً حقيقياً. فالنزول حقيقي على الوجه الذي يليق بالقرآن من غير تكييف ولا تمثيل. وقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر لــــه » (٣). قال الامام النووي: « هذا الحديث من أحاديث الصفات، وفيه مذهبان مشهوران للعلماء.. ومختصرهما أن أحدهما وهو مذهب جمهور السلف وبعض

(١) سورة القدر: آية ١.
(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٦ / ٦٢٨
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٣ / ٢٩، صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ح ١٦٨.



المتكلمين أنه يؤمن بأنها حق على ما يليق بالله تعالى، وأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد، ولا يتكلم في تأويلها مع اعتقاد تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوق » (١). وقـــال سماحة الشيخ ابن باز في تعليقه على شرح ابن حجر لصحيح البخاري: « .. والصواب ما قاله السلف الصالح من الإيمان بالنزول وإمرار النصوص كما وردت من إثبات النزول لله سبحانه على الوجه الذي يليق به من غير تكييف ولا تمثيل كسائر صفاته » (٢).

### كيفية نزول القرآن وحكمة تنجيمه :

نزل الوحي بالقرآن الكريم على رسوله ﷺ بعضه في أثر بعض، وأرسل على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأعوام – كما يقول ابن عباس – وقد تتابع نزول القرآن ثلاثة وعشرين عاماً تقريباً منها ثلاث عشرة سنة في مكة وعشر سنوات في المدينة وكان نزوله مفرقاً كما نطق بذلك القرآن الكريم في أكثر من سورة وآية. ففي سورة الإسراء: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ (٣)، وغيرها من الآيات.

١ – ولا شك أن في نزول القرآن منجما تثبيتا لقلبه ﷺ فتبقى الغبطة تشرح صدره، ويزداد سروره، كلما تجدد لقاؤه بالوحي الإلهي، وهذا واضح وجلي من حزنه ﷺ مرة أو مرات حين تأخر عنه الوحي، فأقسم له مولاه ليطمئنه أنه ما ودعه ربه وما قلاه: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ (٤).

إن نزول الوحي مرة ومرات على فترات يقوي من عزمه، وفيه مزيد العناية والرعاية والتسلية للرسول ﷺ مما يلقاه من هول ومصاعب تتعب نفسه، وهذا واضح وجلي في نزول القصص القرآني، القصة تلو القصة، ليأخذ منها العظة والعبرة، وإن شأنه مع أمته هو شأن الرسل عليهم السلام مع أممهم: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ... ﴾ (٥). ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ... ﴾ (٦).

٢ – من حكمة تنجيمه في النزول تسهيل حفظه وامتثال أوامره ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ (٧) على تمهل وتؤدة، فيسهل حفظه لنزوله شيئاً فشيئاً،

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٦ / ٣٦.
(٢) فتح الباري ٣ / ٢٩ حاشية.
(٣) سورة الإسراء: آية ١٠٦
(٤) سورة الضحى: الآيات ١–٣.
(٥) سورة هود: آية ١٢٠.
(٦) سورة الاحقاف: آية ٣٥.
(٧) سورة الإسراء: آية ١٠٦.

ووفق طريقة الصحابة الذين كانوا يتعلمون العلم والعمل معاً فهم يحفظون ويتعلمون ويعملون قولاً وعملاً.

٣ - لقد تكون المجتمع الإسلامي الأول عبر المراحل الزمنية المتتابعة والمتعاقبة حسب الوقائع والأحداث والظروف التي كان يمر بها بين الحين والحين، ولم يتم هذا طفرة واحدة، وهذه سنن المجتمعات التي تقوم على غير طراز سبق.

فالمجتمع الإسلامي لم يتم تكوينه وتأسيسه بين عشية وضحاها، وإنما بدأ وتطور واستوى على سوقه عبر السنوات والأعوام، فقد بدأ بتأسيس العقيدة وكرائم الأخلاق، ثم شرع بالتشريع والأحكام في العبادات والمعاملات، ثم بيان الأحكام الدولية بعد تأسيس الدولة، كل هذا يتطلب مراحل زمنية متعاقبة تنزل فيها الآيات تبعاً للأحداث والوقائع المستجدة لكل مرحلة من المراحل، وبذلك بنى المجتمع لبنة لبنة. ولنضرب لذلك مثلاً في تحريم الله تعالى للخمر عبر المراحل الزمنية المتعاقبة.

فإن الخمر كانت أعجب شراب لدى العرب وهي عند مدمنيها عادة مكينة صعبة الترك، وقد حاولت أمريكا من عشرات السنوات تحريم الخمر بتشريع واحد حاسم فعجزت، وأصبح تهريبها إلى عشاقها حرفة رائجة لعشرات العصابات، فعاد البرلمان الأمريكي إلى إلغاء الحظر السابق وإباحة الخمر لجمهور السكارى.

والله عز وجل أحكم من أن يفطم عباده عن هذه الآفة بكلمة واحدة، فشرع لهم ما يبعدهم عن الشراب المحرم رويداً رويداً، حتى إذا تمهد الجو للصراحة الكاملة، والعقاب الشديد، أعلن الحكم الذي سبق الإيماء إليه، فاعتبرت الخمر رجساً، واعتبر شاربوها مجرمين، يضربون بالعصي وبالنعال . . !!

والآيات التي نزلت في صدد هذا التحريم هي : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا . . ﴾[١].

وهذا بداية تؤذن بالخطر، فالقاعدة أن ما غلب شره خيره ترك، والشرائع العامة

(١) سورة البقرة : آية ٢١٩ .



والخاصة تقوم على هذا الأساس. ونفع الميسر أن كسبه كان يرمى للفقراء، ونفع الخمر يجيء من الاتجار فيها، أو من النشوة الموقوتة التي تعقب تناولها . .

بيد أن هذه المنافع خفيفة الوزن إذا قورنت بالأضرار والآثام التي تصحب السكر والقمار . . . ثم بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ . . . ﴾[١].

وهذه سياسة عملية واسعة المدى في تحريم الخمر، فإن الصلاة في الإسلام تكتنف الليل والنهار، ومعنى اليقظة التامة عند قربانها أن الذين ما زالوا يستهينون بالشراب سوف يكفون عنه أغلب يومهم، كالذي تعود تدخين ثلاث علب من السجاير إذا فرض عليه أسلوب من الحرمان يباعد بينه وبين شهوته، فإن عدد ما يحرقه قد يهبط من ستين سيجارة إلى عشر أو ست.

وعندما تبلغ الإرادة هذا الحد من القدرة والتسامي، فإن القرار الأخير بالحرمان يجيء في إبانه المناسب، وفي أحسن الظروف لتنفيذه، ومن ثم لم يمض كبير وقت حتى نزل النص الأخير : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾[٢].

وبعد مجيء هذا الإرشاد القاطع شقت بواطي الخمر، وكسرت دنانها، ورمي بها في طرق المدينة . . . وعلى هذا النحو حرم الربا عبر مراحل زمنية متعاقبة ماكانت لتتم لو نزل القرآن دفعة واحدة كما تقول عائشة : «انما نزل أولَ ما نزل سورة من المفصل، منها ذكر الجنة والنار، حتى اذا ثاب الناس إلى الاسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شئ : لا تشربوا الخمر، لقالوا : لا ندع الخمر، ولو نزل : لا تزنوا، لقالوا : لا ندع الزنا أبداً.»[٣].

(١) سورة النساء : آية ٤٣ .
(٢) سورة المائدة : الآيتان ٩٠ - ٩١ .
(٣) نظرات في القرآن ص ٢٣٠ - ٢٣١ - انظر صحيح البخاري ٦ / ١٠١ باب تأليف القرآن.

٤ - من الحكم البالغة في نزول القرآن منجماً الدلالة على الإعجاز القرآني وإثبات مصدره والكلام فيها يطول وقد أشرنا إليه سابقاً.

## هل للقرآن نزول آخر غير المعروف على النبي ﷺ ؟.

لا يرتاب مسلم في أن القرآن الكريم قد أنزل على محمد ﷺ منجماً حسبما يصدق ذلك الواقع كما حدثناك عنه.

ومع ذلك فقد حلا لكثير من العلماء القول بأن للقرآن نزولاً آخر، قال الزركشي: «اختلف العلماء في كيفية نزول القرآن على ثلاثة أقوال.

(١) أنه نزل الى السماء الدنيا ليلة القدر جملةً واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجماً في ثلاث وعشرين سنة.

٢ - أنه نزل إلى السماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدر في ثلاث وعشرين سنة.

٣ - أنه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة في سائر الأوقات.

وذهب الزركشي إلى القول الأول، وقال أنه الأشهر والأصح وإليه ذهب الأكثرون، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ....﴾[١] وفي سورة الدخان: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[٢] وفي سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾[٣]. فقد دلت الآيات الثلاث أن القرآن أنزل في ليلة تسمى ليلة القدر من شهر رمضان، وقد سأل سائل ابن عباس فقال له إن هذه الآيات أوقعت في قلبه الشك، فكيف ينزل القرآن في ليلة القدر، وهذا أنزل في «شوال» وفي «ذي القعده» وفي «ذي الحجة» وفي كل الشهور ....

فقال ابن عباس: «إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل على

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.
(٢) سورة الدخان: آية ٣.
(٣) سورة القدر: اية ١.



مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام»، يريد أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل مفرقاً يتلو بعضه بعضاً على تؤدة ورفق، وذكر السيوطي عن ابن عباس عدة روايات أخرى تفيد نزول القرآن جملة إلى السماء الدنيا[١]، فهو حديث ورد عنه من طرق متعددة يقوي بعضها بعضاً. وهو وإن كان موقوفاً على ابن عباس إلا أن له حكم المرفوع إلى النبي ﷺ. لما هو مقرر من أن قول الصحابي فيمالا مجال للرأي فيه إذا لم يكن معروفاً بالأخذ عن الإسرائيليات حكمه حكم المرفوع إلى النبي ﷺ، ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة من أنباء الغيب التي لا تعرف إلا من المعصوم.

* أما حكمة إنزال القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا قبل إنزاله مفرقاً على النبي ﷺ فهي أن إنزاله مرتين على وجهين مختلفين، مرة جملة واحدة. ومرة أخرى مفرقاً فيه من الاحتفال به والعناية بشأنه ما ليس في إنزاله مرة واحدة على وجه واحد، ولا شك أن في المزيد من العناية به تعظيماً لشأنه وشأن من نزل عليه، ثم إن وضعه في مكان يسمى ببيت العزة يدل على إعزازه وتكريمه، ومن لوازم هذا تكريم المنزل عليه، وتفخيم شأنه، هذا شيء يمكن أن يقال في حكمة إنزاله جملة. ثم إنزاله مفرقاً والله تعالى هو العليم بحقيقة السر في ذلك.

وقد ذهب إلى هذا الرأي كثير من الأقدمين والمحدثين منهم الشيخ الزرقاني[٢] والشيخ محمد أبو شهبة ونص عبارته: (ومعلوم: أن هذا لا يقوله «ابن عباس» بمحض الرأي، فهو محمول على سماعه من النبي ﷺ - أو ممن سمعه من النبي من الصحابة، ومثل هذا له حكم المرفوع، لأن القاعدة عند أئمة الحديث: أن قول الصحابي الذي لم يأخذ عن الإسرائيليات فيما لا مجال للرأي فيه له حكم الرفع، وبذلك ثبتت حجية هذه الآثار)[٣].

هذا الرأي لم يلق استحساناً عندبعض العلماء كالشيخ محمد عبده والاستاذ الدكتور إبراهيم خليفة رئيس قسم التفسير بالأزهر.

(١) الإتقان في علوم القرآن ١ / ١١٦ - ١١٩.
(٢) مناهل العرفان جـ ١ ص ٤٥.
(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم ص ٥١.

أما الأمام محمد عبده فقال في تفسيره جزء عم : (إن ما جاء من الآثار الدالة على نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، مما لايصح معه الاعتماد عليه ، لعدم تواتر خبره عن النبي ﷺ – وأنه لا يجوز الأخذ بالظن في عقيدة مثل هذه ، وإلا كان اتباعاً للظن ) .

أما الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة فقال :

(أقول أقصى وأعظم ما استمسك به أصحاب هذا القول هو الآثار التي مدار الأمر فيها جميعاً على ابن عباس رضي الله عنهما وأن حق هذه الآثار أن تعطى حكم المرفوع إلى النبي ﷺ ، ونحن لا ننازعهم أولاً في ثبوت هذه الآثار عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ولا ننازعهم ثانياً في توفر أحد الشرطين بالفعل هنا وهو كون قول الصحابي في أمر ليس للرأي فيه مدخل ، فإن تعيين مكان بالذات في السماء ، وتسميته ببيت العزة هو حقاً أمر من أمور الغيب التي لا يمكن أن تدرك مثلها بالرأي ، ولكنا ننازعهم في توفر ثاني الشرطين اللذين لا بد منهما مجتمعين لإعطاء قول الصحابي حكم المرفوع ، وهو كون الصحابي لم يعرف بالأخذ من الإسرائيليات حين يكون لقوله صلة مما لدى بني إسرائيل .

ولكنا لا نسلم أن ابن عباس لم يعرف بالأخذ من الإسرائيليات بالرغم من نهيه الصريح من الأخذ بها .

أخرج البخاري عنه في كتاب الشهادات قال : ( يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي نزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرءونه لم يشب ؟ وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله ، وغيروا بأيديهم الكتاب ، فقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، أفلا ينهاكم بعد ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم ) [1] أ . هـ .

فإنه رضي الله عنه وعلى الرغم من نهيه الصريح هذا ، قد ثبت عنه الأخذ عن بني إسرائيل ، إما من منطلق الأمان على نفسه ما لم يأمنه على غيره ، وإما ثقة منه أن ما أخذه

(١) صحيح البخاري . كتاب الشهادات ، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها .



عنهم مما لا يخفى حاله على من تدبر أمره ، وإما رؤية منه أن ما أخذه عنهم لا يتنافى مع شيء مما جاء في الكتاب والسنة ، سواء أخطأ في هذه الرؤية أم أصاب ، ودليلنا على أنه رضي الله عنه قد ثبت عنه الأخذ من الإسرائيليات أمور :

أحدها : ما ذكره غير واحد من الحفاظ عند ترجمتهم لكعب الأحبار الذي هو أحد رؤوس المصادر الاسرائيلية من كون ابن عباس رضي الله عنهما هو أحد الرواة عنه ، وانظر في تحقيق ذلك على سبيل المثال لا الحصر « تهذيب التهذيب » للحافظ ابن حجر جـ ٨ ص ٤٣٨ وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ صفي الدين الخزرجي ص ٣٢١ .

وثاني هذه الأمور التي يتشكل منها دليلنا على ما نقول في هذه القضية المهمة روايات قد ثبتت عن ابن عباس رضي الله عنهما بالفعل ، لا يشك منصف في أنها من الأسرائيليات ، ولا نقول إنها من صنف الإسرائيليات الموافقة للكتاب والسنة ، ولا حتى من جنس ما لا تعرف له موافقة ولا مخالفة ، بل هي من جنس الإسرائيليات المردولة المنافرة للعقل وصريح النقل ، ونكتفي هاهنا بإيراد مثالين – نستميح قارئنا الكريم العذر في تسويد الصفحات بغثاء ما جاء فيها من الرواية عنه رضي الله عنه .

وأول هذه المواضع ، ما جاء من روايته في شأن شيطان سليمان الذي أخذ خاتمه من أحدى أزواجه ، وتملك على ملكه وأقام حيث كان يقيم سليمان حتى من نسائه عليه السلام حسبما تفتري هذه الرواية ، ولعله يجدر بنا الآن أن نكلك في سوق الرواية والتعقيب عليها إلى قلم الحافظ ابن كثير عليه الرحمة إذ يقول فيما يقول بعد أن ساق قصة ذلك عن غير واحد من التابعين في تفسير القول الكريم من سورة ص ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [1] .

وهذه كلها من الإسرائيليات ، ومن أنكرها ماروى عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [2] قال أراد

(١) سورة ص : آية ٣٤ .
(٢) سورة ص : آية ٣٤ .

سليمان عليه الصلاة والسلام أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة خاتمه، وكانت الجرادة امراته وكانت أحب نسائه إليه. فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هات خاتمي، فأعطته إياه، فلما لبسه دانت له الأنس والجن والشياطين، فلما خرج سليمان عليه السلام من الخلاء، وقال لها: هات خاتمي، قالت: قد أعطيته سليمان، قال أنا سليمان، قالت: كذبت ما أنت بسليمان، فجعل لا يأتي أحدا يقول له أنا سليمان إلا كذبه حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة، فلما رأى ذلك سليمان عرف أنه من أمر الله عز وجل، قال: وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد الله تبارك وتعالى أن يرد على سليمان سلطانه، ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان، قال: فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن: أتنكرن من سليمان شيئا، قلن: نعم إنه يأتينا ونحن حيض، ... الخ [1].

أما المثال الثاني: فأورده ابن كثير - أيضا - في تفسيره [2] ما جاء عنه في شأن الملكين والمرأة التي مسخت فكانت كوكب الزهرة، روى عن ابن عباس من قصة طويلة. [ أن هاروت وماروت هبطا إلى الأرض، وجعل لهما شهوات بني آدم، وأمرهما الله أن يعبداه ولا يشركا به شيئا، ونهيا عن قتل النفس الحرام، وأكل المال الحرام، وعن الزنا والسرقة وشرب الخمر، فلبثا في الأرض زمانا يحكمان بين الناس بالحق، وذلك في زمن إدريس عليه السلام، وفي ذلك الزمان أمراة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب، وأنهما أتيا عليها، فخضعا لها في القول، وراوداها على نفسها، فأبت إلا أن يكونا على أمرها وعلى دينها، فسألاها عن دينها، فأخرجت لهما صنما فقالت: هذا أعبده، فقالا: لا حاجة لنا في عبادة هذا، فذهبا فغبرا ما شاء الله، ثم أتيا عليها، فراوداها على نفسها، ففعلت مثل ذلك، فذهبا ثم أتيا عليها، فراوداها على نفسها، فلما رأت أنهما أبيا أن يعبدا الصنم، قالت لهما: اختارا إحدى الخلال الثلاث: إما أن تعبدا هذا الصنم، وإمّا أن تقتلا هذه النفس، وإمّا أن تشربا هذه الخمر.

فقالا: كل هذا لا ينبغي، وأهون هذا شرب الخمر، فشربا فأخذت فيهما فواقعا المرأة، فخشيا أن يخبر الانسان عنهما فقتلاه، فلما ذهب عنهما السكر، وعلما ما وقعا فيه

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٣٩.
(٢) المرجع السابق ٤ / ١٤٤.



من الخطيئة، أرادا أن يصعدا إلى السماء فلم يستطيعا، وحيل بينهما وبين ذلك، وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه، فعجبوا كل العجب، وعرفوا أنه من كان في غيب فهو أقل خشية، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض فنزل في ذلك ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [1] فقيل لهما: اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، فقالا: أما عذاب الدنيا فإنه ينقطع ويذهب، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له، فاختارا عذاب الدنيا، فجعلا ببابل فهما يعذبان، وقد رواه الحاكم في مستدركه مطولاً، ثم قال صحيح الإسناد لم يخرجاه [2].

إن هذه الروايات قد ثبتت عن ابن عباس كما قال ابن كثير، وهي تدل على أخذه بالاسرائيليات كما بينا، لذا ترد هذه الرواية -نزول القرآن إلى السماء الدنيا دفعة واحدة- ولا تعطى حكم المرفوع إلى النبي ﷺ لأن من شروطه أن يكون مما لا مجال للرأي فيه وأن يكون الصحابي ممن لم يأخذ بالاسرائيليات فيما له صلة بالرواية فقط، فإن لم يكن للإسرائيليات صلة فتقبل الرواية.

وبهذا يكون القول الراجح في كيفية نزول القرآن: أن القرآن الكريم قد ابتدأ إنزاله في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجما على مدار السنوات على رسول الله ﷺ والله أعلم.

* * * * *

(١) سورة الشورى: آية ٥.
(٢) المستدرك على الصحيحين في الحديث للحاكم النيسابوري ٢ / ٤٤٢.

## المبحث الأول

## أول وآخر ما نزل من القــرآن

ليس من غرضنا في هذا البحث بيان أول ما نزل وآخر ما نزل في موضوعات معينة، إذ أن هذا يحتاج إلى جهد عظيم، بل إلى تكاتف الجهود في إخراج مثل هذه الدراسة الجديرة بكل عناية ورعاية، وقد حاول الشيخ محمد عزة دروزه في كتابه التفسير الحديث الذي جعل محوره العناية بالتتبع التاريخي لنزول القرآن ولكنه إذْ قارب من ترتيب السور نزولاً إلاَّ أن متابعة الآيات حسب نزولها التاريخي مازال بينه وبين ذلك بونٌ شاسعٌ.

إن مدار البحث في معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل إنما هو البحث عن الرواية والنقل، ولا مجال للعقل فيه إلا بمقدار الجمع أو الترجيح عند اختلاف النقل.

### أولاً : أول ما نزل من القرآن إطلاقاً : القول الراجح

١ - أصح الأقوال وأقواها أن أول ما نزل هو الآيات الخمس في صدر سورة العلق، كما روى ذلك الإمام البخاري ومسلم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت(١) : أول مابدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء. فكان يأتي حراء فيتحنث(٢) فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فتزوده لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه، فقال : اقرأ، قال رسول الله ﷺ : « فقلت : ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني(٣). حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال : اقرأ، فقلت : ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١

(١) صحيح البخاري . كتاب بدء الوحي . باب كيف كان بدء الوحي، ومسلم في كتاب الإيمان . باب بدء الوحي الى رسول الله ﷺ ١ / ١٣٩ .
(٢) يتحنث : يتعبد .
(٣) ضمني وعصرني .



خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾(١).

بهذه الآيات الخمس استهل نزول القرآن ليعلمنا أن العلم والتعلم والكتابة بالقلم هي الوسيلة التي لا وسيلة غيرها لتبليغ هذه الرسالة في مقتبل عمرها، وقد أصبح معلوماً بل بدهياً أن هذه الآيات الخمس هي أول ما نزل من القرآن.

### ﴿ القــول الثــانـي ﴾

روي عن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله أن أول ما نزل هو سورة المدثر، وأسوق إليك هذه الروايات بطولها دون اختصار لسندها ومتنها لحكمة مقصودة قصدها الإمام البخاري من تعداده للطرق واختلاف الرواة.

فقد رواه أولاً - عن يحيى بن موسى البلخي، قال حدثنا وكيع، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن؟ قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ ﴾(٢).

قلت : يقولون : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾، فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن ذلك، وقلت له مثل الذي قلت، فقال جابر : «جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني، فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي، فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة، فقلت : دثروني، وصبوا عليّ ماء بارداً، فدثروني، وصبوا عليّ ماء بارداً، فنزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾(٣).

ورواه ثانياً - عن محمد بن بشار، قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي وغيره - أي أبو داود الطيالسي - قالا - حدثنا حرب بن شداد، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ الحديث نفسه(٤).

ورواه ثالثاً - فقال : باب قوله : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾ حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبد الصمد، حدثنا حرب، حدثنا يحيى، قال : سألت أبا سلمة : أي القرآن أنزل

(١) سورة العلق : آيات ١ - ٥ .
(٢) سورة المدثر : آية ١ .
(٣) فتح الباري ٨ / ٦٧٦ .
(٤) المرجع السابق

أول ؟ فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ ﴾ ، فقلت : أنبئت أنه ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ ، فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبدالله أي القرآن أنزل أول ؟ فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ ، فقلت نبئت أنه : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ ، قال لا أخبرك إلاَّ بما قال رسول الله ﷺ ، قال رسول الله ﷺ :

«جاورت في حراء ، فلما قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي ، فنظرت أمامي وخلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض ، فأتيت خديجة ، فقلت : دثروني ، وصبّوا عليّ ماءً بارداً» .

«وأنزل عليّ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ ﴾ [1] .

ورواه رابعاً - فقال : باب ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، حدثنا يحيى بن كثير ، حدثنا الليث عن عقيل ، عن ابن شهاب ، وحدثني عبد الله بن محمد ، حدثنا عبدالرزاق ، أخبرنا معمر عن الزهري ، فأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي ، فقال في حديثه : «فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فجئوت منه رعباً ، فقلت : زملوني ، فدثروني» ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ﴾ إلى ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ ﴾ [2] .

ورواه خامساً - فقال : باب ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ ، وحدثنا عبد الله بن يوسف ، حدثنا الليث عن عقيل ، قال ابن شهاب : سمعت أبا سلمة قال : أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي : « فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصري قِبَل السماء ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض ، فجئوت منه حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلي ، فقلت : زملوني ، زملوني » فأنزل الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ إلى ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ .

قال أبو سلمة ، ثم حمي الوحي وتتابع [3] .

(١) فتح الباري ٨ / ٦٧٦ .
(٢) المرجع السابق
(٣) المرجع السابق



هذا الصنيع الذي نهجه الإمام البخاري في سوقه روايات القصة عجيب ، ولعله من أسرار جامعه التي لم يسبر غورها ، فالقصة واحدة تدور رواياتها كلها حول موضوع واحد ، والسائل في الروايات الثلاث الأولى واحد ، وهو يحيى بن أبي كثير ، والمسؤول فيها واحد ، هو أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، والمجيب فيها واحد ، هو الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما .

وفي الرواية الرابعة والخامسة لم يذكر يحيى بن أبي كثير ، وإنما ذكر فيهما ابن شهاب الزهري مخبراً عن أبي سلمة بما حدثه به جابر عن رسول الله ﷺ .

وقد استعصى على الباحثين تأويل هذه الأحاديث المروية عن جابر ، فمنهم من أبقاها على التعارض وجزم بخطأ جابر كما ذهب إلى ذلك الإمام النووي الذي جازف فحكم على هذه الأحاديث الثابتة في صحيحي البخاري ومسلم بأنها باطلة ، ومقام النووي في فضله وعلمه بالسنة النبوية ، ودرجات الحديث صحة وضعفاً ، وورعه وفقهه في الدين كان يقتضيه التريث والتعمق في تطلب مخارج لهذا الحديث ، وعدم بت الحكم في بطلان هذه الأحاديث ، على أن للحديث مخارج تحميه عن مثل هذه الأحكام المتسرعة ، ومن العلماء من حاول الجمع بين حديث عائشة وحديث جابر .

ومن المحاولات الضعيفة في الجمع بينهما ما قاله الحافظ جلال الدين السيوطي في الإتقان من أن السؤال كان عن نزول سورة كاملة ، فبين جابر أن سورة المدثر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة اقرأ [1] .

وهذا القول يبطله ما ثبت في الصحيحين أن سورة المدثر لم تنزل بتمامها وكمالها بل نزلت متفرقة حتى قوله تعالى : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ .

أما الكرماني فرد على حديث جابر قائلاً : إن جابراً استخرج ذلك باجتهاده وليس من روايته ، فيقدم عليه ما روته عائشة . وهذه أقوال لا تستند إلى دليل ، ونحن إذا تأملنا الأحاديث نجد أن الأمر لا يدعو إلى الحيرة والدهشة ، فالأحاديث قد قررت الحقائق التالية كما يقول أستاذنا محمد الصادق عرجون :

(١) ١ / ٦٩ .

* أولاً : أن الروايات الثلاث الأولى كانت عن أول ما نزل من القرآن والجواب فيها كان من أبي سلمة بأن أول ما نزل ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ ، وجاءت معارضة يحيى بن كثير لأبي سلمة ، بذكره له ما هو متداول عند أهل العلم بأن أول ما نزل من القرآن : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ ، وبيان أبي سلمة بأن جابراً قد قال له مثلما قال ، وساق له حديث تجلي جبريل وهو يناديه .

* ثانياً : أن الرواية الرابعة والخامسة تفيد أن الزهري أخبره أبو سلمة وسمع منه ما حدثه به جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي ، وقد جاء فيه «فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس بين السماء والأرض» .

* ثالثاً : أن جابراً رضي الله عنه لم يتعرض في حديثه إلى نفي أو إثبات أن قرآناً نزل على النبي ﷺ قبل فترة الوحي ، ولم يتعرض في حديثه لأبي سلمة لقصة غار حراء قبل فترة الوحي وما جرى فيها من أحداث كانت معروفة لأهل العلم من جمهور الصحابة ، وما نزل فيها من أوائل سورة العلق .

ولعل جابراً لم يكن قد وصل إلى علمه شيء من قصة حراء ، وما نظن أن أحداً يزعم أن كل صحابي يجب عليه أن يحيط علماً بجميع جزئيات وقائع الوحي .

أو لعل جابراً رضي الله عنه كان على علم بقصة الوحي في غار حراء ، ولكنه لم يجعلها بمعرض حديثه لأبي سلمة في جواب سؤاله ، لأن هذا الحديث كان في مناسبة خاصة ، هي عودة الوحي بعد فترة ولا شك أن أول ما نزل حينئذ هو : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ ، كما يدل عليه صراحة رواية الزهري بسنديها عن فترة الوحي .

وقد حسم ابن حجر العسقلاني هذه المسألة حسماً حكيماً وموفقاً فقال : دل قوله عن « فترة الوحي » وقوله : «الملك الذي جاءني بحراء» على تأخر نزول سورة المدثر عن اقرأ ، ولما خلت رواية يحيى بن أبي كثير عن هاتين الجملتين أشكل الأمر ، فجزم من جزم بأن : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ ﴾ ، أول ما نزل ، ورواية الزهري هذه صحيحة ترفع الإشكال[1] .

(١) فتح الباري ١ / ٢٨ .



ثم قال في تفسيره سورة اقرأ ، ورواية الزهري عن أبي سلمة عن جابر تدل على أن المراد بالأولية في قوله أول ما نزل سورة المدثر أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي .

٣ - وأما ثالث الأقوال في المسألة فيقول السيوطي رحمه الله في الاتقان [ القول الثالث : سورة الفاتحة ، قال في الكشاف : ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أن أول سورة نزلت «اقرأ» وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب .

قال ابن حجر : والذي ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول .

وأما الذي نسبه إلى الأكثر فلم يقل به إلا أَقَلُّ القليل بالنسبة إلى من قال بالأول .

حجة هذاالقول ما أخرجه البيهقي في الدلائل والواحدي من طريق يونس بن كبير ، عن يونس بن عمرو ، عن أبيه ، عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل ، أن رسول الله ﷺ قال لخديجة : « إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء ، والله خشيت أن يكون هذا أمراً » ، فقالت : معاذ الله ، ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدي الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث . فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له ، وقالت : اذهب مع محمد إلى ورقة ، فانطلقا فقصا عليه ، فقال : « إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي : يا محمد يا محمد . فأنطلق هارباً في الأفق » ، فقال : لا تفعل ، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ، ثم ائتني فأخبرني ، فلما خلا ناداه : يا محمد قل : ( بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين ) حتى بلغ ( ولا الضالين ) . . الحديث ، هذا مرسل رجاله ثقات .

قال البيهقي : إن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد ما نزلت عليه اقرأ والمدثر[1] .

أما الحافظ بن كثير رحمه الله فقد ساق الحديث في كتابه ( البداية والنهاية ) من رواية البيهقي وأبي نعيم في دلائلهما عن عمرو بن شرحبيل ثم قال ( هذا لفظ البيهقي وهو مرسل وفيه غرابة وهو كون الفاتحة أول ما نزل )[2] .

(١) جـ ١ ، ص ٩٤ فما بعدها .
(٢) جـ ٣ ، ص ٩ فما بعدها .

وأقول كون الحديث مرسلاً أمارة كافية على ضعفه وعدم صلوحه للدلالة في أمثال هذه المطالب لو استقل بنفسه ولم يعارضه غيره، فكيف وقد عارضه غيره من حديث الشيخين السابق لك في أوائل هذا المبحث عن عائشة رضي الله عنها والقاضي بأولية نجم العلق .

وبعد: فإنه لا يخفى عليك سقوط محاولة الجمع بينه وبين حديث الصحيحين، والتي حاولها البيهقي إذ قال في النقل الآنف لك عنه من نص السيوطي [ إن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد ما نزلت عليه اقرأ والمدثر ].

أما أولاً - فلأنه إنما تتحمل مؤونة الجمع إذا صح الخبر المعارض لما هو مثله في الصحة أو أصح منه والخبر هنا ضعيف لا وزن له.

وأما ثانياً - فلأن في متن هذا الخبر شاهد ضعفه بل سقوطه بالكلية، أليس فيه الزعم بخشيته ﷺ بسبب سماعه النداء إذا خلا وحده بل بانطلاقه عند سماعه النداء هارباً، وأنه لم يثبت له إلا بعد أن نصح له ورقة بالثبات، فكيف يصلح هذا بأي وجه من الوجوه في عقل عاقل بعد ما قد عرف الوحي وتحقق من صدقه وحقيته، وتمت له النبوة والرسالة جميعاً بنزول نجمي العلق والمدثر معاً على ما زعم هذا الجامع، فمن ثم كان الصواب كل الصواب في طرح مثل هذا الخبر بالكلية وراء الظهر على مثل ما فعل الإمام النووي عليه الرحمة من إهماله وعدم المبالاة به أصلاً، فقال وصدق فيما قال في شرحه لمسلم [ وأما قول من قال من المفسرين أول ما نزل الفاتحة فبطلانه أظهر من أن يذكر ][1].

وعلى الرغم من وضوح الأمر بحيث لا يشتبه على ذي لب أن ما بني عليه هذا القول من الشبهة هو بحيث لا يستقيم لا سنداً ولا متناً.

نقول على الرغم من وضوح الأمر بالنسبة لهذا القول، فإن البعض من أهل هذا العصر وأعني بهذا البعض الأستاذ الإمام محمد عبده قد أقتدى الزمخشري ولنورد لك الآن قوله بتمامه على ما نقله عنه تلميذه الأخص صاحب المنار والذي لم ير - على خلاف عادته - موافقة قول أستاذه للصواب أو قل قد رأى بالفعل مجانبة أستاذه للصواب، فقال رحمه الله في أول تفسير الفاتحة: وأما الأستاذ الامام فقد رجح أن الفاتحة أول ما نزل على

(١) جـ ٢، ص ٢٠٨.



الأطلاق، ولم يستثن قوله تعالى « اقرأ باسم ربك » ونزع في الاستدلال على ذلك منزعاً غريباً في حكمة القرآن وفقه الدين فقال ما مثاله:

ومن آية ذلك: أن السنة الإلهية في هذا الكون - سواء كان كون إيجاد أو كون تشريع - أن يظهر سبحانه الشيء مجملاً ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجياً، وما مثل الهدايات الإلهية إلا مثل البذرة والشجرة العظيمة، فهي في بدايتها مادة حياة تحتوي على جميع أصولها، ثم تنمو بالتدرج حتى تبسق فروعها بعد أن تعظم دوحتها ثم تجود عليك بثمرها. والفاتحة مشتملة على مجمل مافي القرآن، وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها. ولست أعني بهذا ما يعبرون عنه بالإشارة ودلالة الحروف، كقولهم إن أسرار القرآن في الفاتحة، وأسرار الفاتحة في البسملة، وأسرار البسملة في الباء، وأسرار الباء في نقطتها، فإن هذا لم يثبت عن النبي ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان ولا هو معقول في نفسه، وإنما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى سلب القرآن خاصته وهي البيان.

بعد هذا الكلام المبهم، أخذ الامام يفسر سورة الفاتحة إلى أن قال:

إن سورة الفاتحة مشتملة على ما اشتمل عليه القرآن، فلابُدَّ أن تكون هي الاولى في النزول بمكة[1].

القول الرابع: ما ذكره السيوطي في الإتقان قال: وأخرج الواحدي بإسناده عن عكرمة والحسن قالا: أول ما نزل من القرآن ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ وأول سورة نزلت ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾، وقد ردّ أستاذنا الشيخ عبد الوهاب غزلان على كلام السيوطي قائلاً «ويندفع كلام السيوطي بأن الأحاديث الصحيحة التي روي فيها نزول صدر سورة العلق لم يرد فيها ذكر ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فهو قول ضعيف، ولضعفه أعرض عنه الزركشي، فلم يذكره، ولم يشر إليه، وكذلك لم يذكره النووي في شرح مسلم ولم يشر إليه عندما ذكر الأقوال في أول ما نزل من القرآن[2]».

(١) انظر تفسير المنار لسورة الفاتحة، جـ ١ ص ١٣، ٣٥-٣٨.
(٢) البيان ص ٨١ وما بعدها، ومنة المنان في علوم القرآن جـ ٢ ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

لم يرد في آخر ما نزل حديث مرفوع عن النبي ﷺ بل وردت آثار صحيحة عن الصحابة – رضوان الله عليهم – ، ونرى أن الجدير من هذه الأقوال ثلاثة وما عدا ذلك فبعيد عن الاعتبار :

* أما القول الأول : فرواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما – قال : ( آخر آية نزلت الربا ) والمراد بها قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ . . . ﴾[1] .

روى الإمام أحمد والنسائي والبيهقي عن عمر [ أن من آخر ما نزل آية الربا . . . ] وهناك زيادة في الرواية أن النبي ﷺ مات ولم يبين لنا آية الربا إشارة إلى قرب وفاته .

* أما القول الثاني : فما أخرجه النسائي وابن مردويه وابن جرير من طرق مختلفة عن ابن عباس : آخر آية نزلت :

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١) ﴾[2] .

* أما القول الثالث : فما أخرجه ابن جرير عن سعيد بن المسيب أنه بلغه أن آخر آية نزلت آية الدَّيْن :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾[3] .

## موقف العلماء من هذه الأقوال :

يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب غزلان : هذه الروايات الواردة في آخر ما نزل وهي متعارضة . ومن المعلوم أنه إذا تعارضت الروايات في أمر من الأمور فإما أن يرجح بعضها على بعض ، وإما أن يجمع بينهما إن أمكن الجمع بلا تكلف[4] .

(١) سورة البقرة : آية ٢٧٨ .
(٢) سورة البقرة : آية ٢٨١ .
(٣) سورة البقرة : آية ٢٨٢ .
(٤) البيـان ، ص ٨٣ .



أما الترجيح فيقتضي القول بترجيح ماروراه البخاري في صحيحه أن آية الربا هي آخر ما نزل .

ومن العلماء من قال بترجيح نزول آية : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ . . ﴾[1] .

وقد ذهب إلى ذلك الزرقاني وقال : إن النفس تستريح لمثل هذا القول لما تحمله هذه الآية في طياتها من الإشارة إلى ختام الوحي والدين ، بسبب ما تحثّ عليه من الاستعداد ليوم الميعاد ، وما تنوه به من الرجوع إلى الله ، واستيفاء الجزاء العادل من غير غبن ولا ظلم ، وذلك كله أنسب بالختام من آيات الأحكام المذكورة في سياقها . وأيد ذلك أيضاً أن الروايات قد نصت أن النبي ﷺ عاش بعد نزولها تسع ليال فقط ولم تظفر الآيات الأخرى بهذا التنصيص .

أما الجمع بين هذه الروايات فهو المسلك الأسلم والأصوب ما دام الجمع ممكناً وهو مقدم على الترجيح لأن في الجمع إعمال الأدلة وفي الترجيح إهمال لبعضها .

لذا فقد سلك الإمام السيوطي هذا الطريق ، ونقل ذلك عن الحافظ ابن حجر العسقلاني .

قال السيوطي : ولا منافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا ، واتقوا يوماً ، وآية الدَّيْن لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف ولأنها في قصة واحدة ، فأخبر كل عن بعض مانزل بأنه آخر وذلك صحيح .

هذا القول السديد في آخر ما نزل ، وبالتأمل الدقيق في هذه الروايات نجد دلائل قوية مع من ذهب إلى الجمع بين الأقوال ونجد ضعف حجج المرجحين .

أما دلائل الجمع بين الروايات فلما أسلفنا من أن إعمال جميع الأدلة خير من إهمال بعضها ، وليس في هذه الروايات ما يناقض بعضه بعضاً حتى نرجح بعضها ونسقط شيئاً منها .

(١) سورة البقرة : آية ٢٨١ .

وكذلك فإن ابن عباس الذي صح عنه رواية الربا هو نفسه أيضاً روى عنه آية ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا .....﴾، ولا يعقل أن يناقض نفسه. فالأولى أن نقول بعدم التناقض في أقواله.

أما القول بترجيح آية: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا ...﴾، فإن هذه الرواية وإن ارتاحت النفس إلى أنها آخر ما نزل إلاّ أنها لا تعدل في سندها رواية آية الربا التي رويت في صحيح البخاري.

وغني عن البيان تقديم روايات البخاري على غيره، فلا نقدم رواية ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾ عليها لأنها أضعف سنداً، أما دعوى أن آية ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا .....﴾ قد أقترن بها ما يفيد أن النبي ﷺ لم يعش بعدها إلاّ تسع ليال فليست هذه قرينة على أنها متأخرة في نزولها على آيتي الربا والدَّين لأن في آية الربا رواية مساندة تقول بأن النبي ﷺ مات ولم يبين لنا آية الربا لقرب وفاته، وفي آية الربا دلالة على أنها آخر ما نزل حسبما وردت الروايات الصحيحة وهي مقدمه في صحتها على رواية نزول آية: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا ...﴾.

كما أن الرواية تقول أن آية الدَّين أحدث آية بالعرش، وما كان كذلك يدل على أنها آخر القرآن نزولاً لأن الأحدث نزولاً من العرش هو الآخر نزولاً إلى الأرض.

من أجل كل هذا وغيره نقول إن آخر ما نزل هو جميع هذه الآيات ويساعد على ذلك ترتيبهما في المصحف بل رأى ابن حجر أنها قصة واحدة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ ...﴾ الآية[1]

إنها حقاً قصة واحدة ومجالها المعاملة المالية، لأن الآيات تتحدث عن ربا النسيئة وهو المراد هنا وإنما يترتب على الدَّين، فهي في أمرين أحدهما متفرع على الآخر وبهذا يكونان في قصة واحدة.

(١) سورة البقرة: آيات ٢٧٨ - ٢٨٢.



## شُبهات في آخر ما نزل من القرآن:

وردت روايات عن الصحابة صحيحة وأخرى ضعيفة في أواخر ما نزل من القرآن، وليس في هذه الروايات ما رفع إلى النبي ﷺ، فتحتمل أن تكون الرواية قالها الصحابي بضرب من الاجتهاد وتحتمل أن تكون آخر ما سمعه من رسول الله ﷺ.

ولا يلزم أن يكون آخر ما سمعه هو آخر القرآن نزولاً لأن قول الصحابي في مثل هذا الأمر، يعطي حكم الموقوف ولا يعطي حكم الرفع، لأن مضمونها لا يتوقف على التلقي والتوقيف بل يمكن معرفته عن طريق ملازمة الرسول في أيامه الأخيرة.

فكلٌ يرى أنه سمع من الرسول ﷺ شيئاً من القرآن قبل وفاته لم ينزل عليه بعده شيء، فيكون آخر ما نزل من القرآن بحسب ظنه واجتهاده كما في حديث عثمان المشهور «براءة من آخر ما نزل». وكما ورد عن عائشة أن آخر سورة نزلت المائدة ومن هذه الآثار مارواه الشيخان عن البراء بن عازب أن آخر سورة نزلت براءة وأخرج مسلم عن ابن عباس قال: آخر سورة نزلت:

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾.

وفي هذه الروايات الصحيحة نظر في متنها، والكلام يطول في مناقشة كونها آخر ما نزل، وفي دعوى نزولها كاملة، أونزول معظمها إذ من المحتم من خلال استقراء الآيات وأسباب نزولها أنها لم تنزل دفعة واحدة، لذا حملت هذه الروايات على أن كل واحد أجاب بما عنده حسب ظنه الذي لا يوافق ظن غيره فيما قاله، أو تُحمل هذه الروايات على أن هذه السور القرآنية من أواخر ما نزل ولكنها ليست الآخرية المطلقة.

وهناك روايات كثيرة في آخر ما نزل، حمل الكثير منها على أنها آخر ما نزل في موضوع معين كآية الكلالة حملت على أنها آخر ما ورد في الميراث، وآية: ﴿... إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ ...﴾[1].

حملت على أنها آخر ما نزل في الخمر وهكذا ...

(١) سورة المائدة: آية ٩.

## خطأ شائع في إدعاء أن آية ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ هي آخر ما نزل:

أفردت [1] الحديث عن هذه الآية القرآنية للخطأ الشائع الذائع عنها، فإني قد وجدت هذا الخطأ مكرراً ومردداً في جميع العالم الإسلامي، خلال تدريسي في الجامعات العربية، كنت أسأل هذا السؤال كمقدمة لمحاضرتي ما آخر ما نزل من القرآن؟ فيرد الجميع: ﴿ ... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا.. ﴾[2]

إنني أعزو هذه الظاهرة إلى التأليف المتعجل في مادة التربية الإسلامية وأنهم يقلدون وينقلون الكلام على علاته. وقد كان مصدرهم جميعاً كتاب تاريخ التشريع الإسلامي للشيخ محمد الخضري بك، الذي لم ينقح الأقوال في هذا الموضوع.

* **منشأ هذه الشبهة:** أشهر الكتب القديمة في علوم القرآن كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي والإتقان في علوم القرآن للسيوطي.

أما الزركشي فأورد الأقوال التي بلغ بها عشرة ولم يشر إلى آية: ﴿.. ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ أنها آخر ما نزل.

وأما السيوطي فقد عقب على الأقوال في آخر ما نزل، وقال - من المشكل على ما تقدم قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ فإنها نزلت بعرفة، ثم أورد قول السدي وجماعة: لم ينزل بعدها حلال ولا حرام.

وهذا القول على الرغم مما قيل في سنده إلاّ أن ابن جرير قد استشكل عليه فهم السديُ ومن وافقه من أن المقصود من إكمال الدين في هذه الآية أن جميع الفرائض والأحكام قد تمت قبل نزولها مع أنه نزل بعدها آية الربا وآية الدين وهما من آيات الأحكام.

وقد دفع ابن جرير هذا الإشكال بقوله:

(١) انفرد بهذا المطلب د/ محمد علي الحسن.
(٢) سورة المائدة: آية ٣.



(والأولى أن نتأول آية ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا . . . ﴾ على أنه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام وإجلاء المشركين عنه حتى حج المسلمون لا يخالطهم المشركون).

ثم أيده بما روي عن ابن عباس: (كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً، فلما نزلت «براءة» نُفي المشركون عن البيت الحرام، وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين) فمعنى الآية أن المراد بإكمال الدين إكمال سلطانه وسطوته، وإعلاء كلمته وتقوية شوكته، حيث ذل المشركون أمام المسلمين، وخضعوا لقول الله تعالى في السورة نفسها «براءة»:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا . . . ﴾[1].

فلم يجترىء أحد منهم على مخالفة هذا الحكم، والتأويل الذي ذهب إليه السدي ومن وافقه لا ينفي أن ينزل بعدها آيات في الحلال والحرام. في الوعظ والتذكير والوعد والوعيد ونحو ذلك.

وأخيراً فإن الزعم بأن هذه الآية آخر ما نزل، لم يقل به أحد من السلف فيما أعلم[2].

(١) سورة التوبة: آية ٢٨.
(٢) انظر جامع البيان في تفسير هذه الآيات من سورة المائدة.

## المبحث الثاني
## المكي والمدني من القــرآن

### المراد بالمكي والمدني :

لم يرد عن النبي ﷺ بيانٌ في ذلك، لأن المسلمين آنذاك لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان، فهم يشهدون الوحي ومكانه وزمانه، وأسباب نزوله بل ينتظرونه أحياناً لتوضيح مسألة أو للحكم في قضية.

إنما وقع الخلاف بين العلماء حين غابت هذه الظروف وامتد الزمن حول بعض الآيات وبعض السور، وأظهر ما يكون الخلاف في السور المكية وآياتها، لأن حوادث مكة لم تعد واضحة بيّنة مثل حوادث المدينة.

هذا بالنسبة للترتيب الزمني لنزول الآيات والسور. أما من ناحية أن هذا القرآن مكي وهذا مدني فيمكن القطع فيه على وجه الإجمال إلاّ في مواضع قليلة فيها خلافات يسيرة، أما القطع في التفصيل فأبعد منالاً وأصعب تحقيقاً.

وقد تعددت وجهات النظر حول الأسس والضوابط في تقسيم القرآن الكريم إلى مكي ومدني، فمن العلماء من اعتبر الزمان، ومنهم من اعتبر المكان، ومنهم من راعى توجيه الخطاب.

والأول هو المشهور عند أئمة التفسير بل المجمع عليه لأنه تقسيم ضابط وحاصر ومطرد، فما نزل من القرآن قبل الهجرة فهو مكي وإن نزل خارج مكة، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني وإن نزل خارج المدينة بل لو نزل في مكة ذاتها. لذا فقد جعلوا سورة النصر مدنية، وقد نزلت في مكة، واعتبروا آية المائدة ﴿ . . . ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾(١) مدنية كذلك وقد نزلت على عرفات قرب مكة.

---

(١) سورة المائدة : آية ٣.



أما من جعل المكان مناطاً للتقسيم فقال: ما نزل في مكة فهو مكي، وما نزل في المدينة فهو مدني، ولما كان من الآيات ما نزل خارج مكة وخارج المدينة، فقد وسع هؤلاء الدائرة المكانية فقالوا: ما نزل بمكة وضواحيها كمنى وعرفات والحُدَيْبية فهو مكي، وما نزل بالمدينة وضواحيها كبدر وأحد فهو مدني، وعلى الرغم من ذلك بقي هذا التقسيم غير شامل ولا حاصر لكثير من الحالات إذ من الآيات ما نزل في غير مكة والمدينة وضواحيهما، كالآيات التي نزلت في بيت المقدس وتبوك وغيرها، مما اضطر بعضهم إلى تقسيمه أربعة أقسام كما قال ابن النقيب في مقدمة تفسيره : (المنزل من القرآن أربعة أقسام، مكي ومدني وما بعضه مكي وبعضه مدني، وماليس بمكي ولا مدني). أي لم ينزل في مكة ولا في المدينة.

ولا يخفى عليك أن هذا التقسيم غير حاصر ولا ضابط ولا مطرد فهو مخل بالمقصود.

أما التقسيم الذي نظر فيه إلى توجيه الخطاب فما وُجِّه فيه الخطاب لأهل مكة فهو مكي، وما وجّه فيه الخطاب لأهل المدينة فهو مدني، فهو أيضاً غير شامل ولا حاصر لجميع الآيات القرآنية، إذ من الآيات ما لم يرد فيها خطاب لأهل مكة ولا لأهل المدينة، كالآيات التي خاطبت النبي ﷺ وحده، بل من الآيات لم يرد بها الخطاب لأحد من هؤلاء جميعاً، كآيات القصص والأخبار، فماذا يمكن أن يقال عن مثل هذه الآيات؟! بل ماذا يقال عن الآيات التي نزلت بعد أن عمّ نور الإسلام المدينة ومكة معاً وأصبح الخطاب موجهاً للجميع دون استثناء بل موجهاً لجميع الخلق بإنسها وجنّها.

ويبقى القول الأول الذي لا محيص عنه لضبطه وحصره وشموله لجميع القرآن، وقد ورد النص الصريح عن الصحابة في اعتبار هذا الرأي، فقد قالوا عن سورة النصر إنها مدنية، وقالوا عن آية المائدة السابقة الذكر إنها مدنية كذلك، وهذا القول ينسجم والتقسيم الأول.

هذا هو الاصطلاح المعتمد عند جمهور المفسرين وبذلك وافقوا أقوال الصحابة أن سورة الفتح وآية المائدة ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ مدنية كذلك لنزولهما بعد الهجرة وإن نزلتا في مكة، وقالوا: إن آيات فرض الصلاة مكية وان نزلت في السموات لنزولها قبل الهجرة.

## الطريق لمعرفة المكي والمدني :

بعد تحديد المراد من المكي والمدني نود أن نعرف الطريق الموصلة لمعرفة كل منهما.

يقول الباقلاني : (إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين، ولم يرد عن النبي ﷺ في ذلك قول لأنه لم يؤمر به)[1].

فالصحابة رضوان الله عليهم قد شاهدوا الوحي ونزوله، وقد بلّغهم النبي ﷺ ما نزل عليه من الآيات، وقد أخبرونا بما أخبرهم به، بل أخبرونا بالمكان والزمان الذي نزلت فيه الآيات، بل بلغت بهم الدقة أن أخبرونا بما نزل منه ليلاً أو نهاراً. وما نزل منه في سفر أو في حضر، في سهل أو في جبل، بالصيف أو بالشتاء، مانزل ببيت المقدس والجُحْفَة والطائف والحُدَيْبِيَة، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال :

(والله الذي لا إله غيره ما نزلت آيةٌ في كتاب الله إلاّ وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت)[2].

وروي مثل ذلك عن وهب بن عبد الله بن أبي الطفيل، قال: شهدت علياً رضي الله عنه يخطب ويقول :

(سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلاّ أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلاّ وأنا أعلم أبِلَيْلٍ نزلت أم بنهار، في سهل أم في جبل).

فأمر معرفة المكي والمدني سماعي عن الصحابة رضوان الله عليهم لأنهم شاهدوا الوحي ونزوله، وعرفوا مكانه وزمانه، وقولهم في ذلك له حكم المرفوع عن النبي ﷺ لأن ذلك مما لا مجال للرأي فيه، فإذا صح القول عن الصحابي قُبل ولا يُعْدَل عنه إلاّ بدليل أقوى يقتضي هذا العدول.

وقد ألحق الباقلاني قول التابعي فجعله كقول الصحابي لأن كبار التابعين قد شاهدوا من شاهد نزول الوحي، ونقلوا إلينا أقوالهم، فإذا ما أخبرونا بأن هذه الآية مكية قُبل قولهم، وقد قَبِلَ الإمام الشافعي مراسيل كبار التابعين في الحديث، أفلا يقبل إخبارهم

(١) الإتقان ١/٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب فضائل القرآن. باب القراء من أصحاب النبي ﷺ.



بمكان نزول الآيات.

سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال : (نزلت في سفح ذلك الجبل) وأشار إلى سلع، فإخبار عكرمة بذلك لا يكون إلاّ إذا سمعهُ من الصحابة الذين عرفوا هذا المكان فأخبروه بما رأوا وسمعوا، ولا أدل على ذلك من أن ابن مسعود رضي الله عنه على الرغم من القول الذي نقل عنه في معرفة زمان ومكان النزول إلاّ أن ما روي عنه نزر يسير، وهو إذ لم يكتم علماً في معرفته نفع للأمة، فإنه يكون قد علّمه إلى من سمع منه من التابعين رضوان الله عليهم.

يبقى القول في بعض الآيات التي اختلف في زمن وموطن نزولها، هذه الآيات قلائل قد أمكن معرفتها وفق معايير دقيقة كالنظر في طابع الآيات المكية والمدنية، ومميزات كل منهما ومدى انطباق الآيات عليها، أو بالتتبع التاريخي لسير الدعوة الإسلامية ومقتضيات كل مرحلة، أو قرائن أخرى يعرفها المتمرس في القرآن وعلومه، والله أعلم.

## مميزات المكي والمدني :

تحدثنا عن الطريق الموصلة لمعرفة المكي والمدني، وعرفنا أن السبيل إلى ذلك هو السماع عن الصحابة - رضوان الله عليهم - أو عن كبار التابعين، بيد أن هناك بعض الآيات التي اختلف في مكيتها ومدنيتها مما أضطر العلماء إلى القول فيها بالاجتهاد والقياس وذلك وفق ضوابط أو قرائن يمكن بواسطتها الحكم عليها، ولدى استقراء الآيات القرآنية وجد أن للمكي ضوابط ومميزات معينة تختلف نوعاً ما عن الطابع المدني أبرزها :

١ - أن السور المكية يغلب على آياتها القصر، فسورة المدثر على سبيل المثال عدد آياتها ست وخمسون آية، وجُلُّ آياتها كلمتان أو ثلاث أو بضع كلمات على الأكثر ولا يستثنى من ذلك إلاّ آية واحدة رقم (٣١) : ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾[1].

(١) سورة المدثر : آية ٣١.